وأخيراً أصبح في الشارع.. فتحرك مسرعاً إلى الشارع التالي..

وأشار إلى أول سيارة تاكسي مرت به، وأندس بداخلها وهو يقول لسائقها: خذني إلى شارع «دزينجوف».

لم يكن ماجد من الغباء ليطلب من السائق أن يحمله إلى شارع «الملك سول» الذي يقع فيه مبنى «الموساد»، لأن أول ما كان سيفعله السائق بعدها هو أن يذهب للإبلاغ عن ذلك الغريب الذي طلب الذهاب إلى شارع مبنى «الموساد» بعد منتصف الليل!!

ولم يكن شارع «دزينجوف» يبتعد كثيرا عن شارع «الملك سول»، ولكنه يشتهر عنه بأنه شارع الملاهي وعلب الليل التي تسهر حتى الفجر، فتطلع السائق باسماً إلى ماجد وقال له: هل تريد أن تلهو الليلة يا سيدي؟

وغمز بعينيه مضيفاً في لهجة خاصة: يمكنني أن أجعلك تلهو كما تشاء مع أجمل فتيات «تل أبيب» و..

ولكن ماجد قاطعه في لهجة ساخرة: لا أظن أن اللهو الذي أنشده تستطيع فتياتك تقديمه لي.

فحدق السائق في ماجد دون أن يفهم ما يقصد.. وقاد سيارته صامتاً حتى شارع «دزينجوف».

وما كاد ماجد يغادر السيارة في ناصية الشارع المظلم حتى شاهد شاباً يجري بكل قوته وقد سالت الدماء من وجهه وغطت ملابسه، واندفع الشاب إلى ماجد واصطدم به صارخا باللغة العربية: أنقذني يا سيدي.. إن هؤلاء الاوغاد يطاردونني ويريدون إطلاق الرصاص علي وقتلي.

- من هم الذين يطاردونك؟

- إنهم أفراد الوحدة الخاصة لاغتيال الفلسطينيين.. فقد شاركت في إحدى المظاهرات ورشقت بعض الجنود بالحجارة، فجاءوا يسعون خلفي لقتلي.

وما كاد الشاب ينهي عبارته حتى دوّى صوت هدير عنيف في نهاية الشارع..

هدير دبابات ومصفحات مدرعة.. يسبقها عشرات الجنود المدججين بالسلاح.. وصرخ الشاب في هلع عندما شاهد القوات المدرعة: إنهم.. سوف يقتلونني لا محالة.

ارتسمت في عيني ماجد نظرة صارمة قاسية وقال للشاب الفلسطيني: لا تخشَ شيئا.. إن هؤلاء الأوغاد لن يمسوك بأذى.

وأشار إلى الشارع التالي قائلا: أسرع باجتياز هذا الشارع يسارا.. وسوف أضللهم وأقودهم إلى شارع «الملك سول» يميناً.

فحدق الشاب المصاب في ماجد كأنه لا يصدق أنه سيفعل ذلك حقاً.. ثم أفاق على صوت صيحات الجنود فاندفع بكل قوته حيث أشار ماجد واختفى في الشارع المظلم.

واندفع الجنود المسلحون مطلقين صيحات غاضبة، ومن خلفهم تهدر الدبابات والمدرعات، وأقترب أحدهم من ماجد غاضباً، وهو يقول: هل شاهدت شاباً فلسطينياً مصاباً يعدو قريباً من هنا؟

هز ماجد كتفيه قائلا بعدم اكتراث: لا أدري فإنني مجرد سائح وصلت إلى هذه البلاد منذ ساعات قليلة، ولم تتعود عيناي على وجوه الفلسطينيين لأستطيع تمييزهم.. ولكنني سمعت قدمين تهرولان في الظلام إلى الشارع التالي يميناً، وقد يكون صاحبها من تقصدونه.

فصاح الجندي في زملائه: أسرعوا إلى شارع «الملك سول».. لقد هرب الفلسطيني إلى هناك.

وقبل أن يلحق بزملائه، حدق فيه ماجد في تهكم قائلا: ولكن هل جاءت كل هذه القوات والمدرعات والدبابات لتقبض على شخص واحد.. فيا له من جيش قوى هذا الجيش الإسرائيلي يستحق كل تلك الأساطير التي تحاك عنه!

حدق الجندي في ماجد بشك وقال: إنك تتحدث كما لو كنت أحد هؤلاء العرب الأوغاد..

واتسعت عيناه في غضب عنيف وقد لاحظ بقعة الدماء التي تركها الفلسطيني الهارب فوق كتف ماجد، فاستل بندقيته في وجهه بغضب هاتفاً: إن هناك بعض الدماء فوق كتف سترتك.. ولا شك أنها من دماء ذلك الفلسطيني الهارب وأنك ساعدته على الهرب..

وقاطعه ماجد قائلاً: إنها ملحوظة ذكية.. ولكنها جاءت متأخرة بعض الشيء!

وطارت قبضته إلى فك الجندي وهو يضيف: كما أنني أكره كل الأوغاد الذي يصفون قومي بأنهم أوغاد!

ثم هوت ذراعه فوق قبضة الجندي الممسكة بالبندقية فأطاح بها بعيداً..

وترنح الجندي لشدة الضربة وهو لا يكاد يقوى على الوقوف وقد أسالت لكمة ماجد الدماء من فمه.. ولكنه تمالك نفسه وصرخ في زملائه بكل قوته: اقبضوا على هذا الرجل.. إنه شريك الفلسطيني الهارب.

وفي الحال دوت طلقات رصاصات عنيفة من كل اتجاه.. ولكن ماجد كان أسبق في العمل فألقى بنفسه على الأرض متدحرجاً بعيداً..

وأصابت رصاصات الجنود صدر زميلهم.. فترنح بعينين جاحظتين ثم تهاوى على الأرض دون حراك.

وقفز ماجد في الهواء مصوباً ضربتين عنيفتين بقدميه الاثنتين هشمتا وجه جنديين آخرين وصاح ماجد بهما: وهذه تحية أطفال ثورة الحجارة.

ولكن عشرات الجنود اندفعوا تجاه ماجد وهم يطلقون رصاصاتهم..

وأحس رقم (٧٠٠) أنه في حصار ولم تعد تلك الليلة

الهادئة التي أرادها للقيام بمهمته في هدوء.. كانت المرة الأولى التي يواجه فيها جيشا بكل تلك الأسلحة.. جيشا إسرائيليا!

ولكن كان من المستحيل عليه أن يستسلم بأي حال من الأحوال.. فألقى بنفسه على الأرض متدحرجاً وأخرج مسدسه وضغط فوق الزناد بحركة سريعة في طلقات متتابعة..

ومن مكانه شاهد ماجد مدفع إحدى الدبابات وهو يتحرك تجاهه.. ومن الناحية الأخرى كانت فوهة دبابة أخرى تصوب إليه قذيفتها..

ولم يكن هناك أي وقت للعمل.. وبدا الموقف ميئوسا منه تماماً.

ولكن ماجد لم يكن مجرد شخص عادي.. ولا حتى عميل ماهر لجهاز مخابرات بارع فقط.. بل كان أيضاً هو رجل المهام الصعبة.. ولطالما واجه مهام أكثر صعوبة وخطورة دون أن يمسه أذى.. وفي حركة خاطفة فَعَل شيئين معا في لحظة واحدة.. فأطلق آخر رصاصة تبقت في مسدسه نحو اللمبة الكهربائية الوحيدة المضاءة فوق عمود الإنارة القريب، وتدحرج مبتعداً وقد ساد الظلام المكان بعد تهشم اللمبة الكبيرة.

ودوى انفجار قذيفتي الدباباتين لتحطما جدار المنزل الذي كان ماجد يحتمي أمامه قبل لحظة، وتعالت طلقات الرصاص العشوائية من فوهات البنادق وصرخات الجنود الذين أصابتهم رصاصات زملائهم، وصرخ أحد الضباط: أوقفوا إطلاق الرصاص أيها الأغبياء وأضيئوا كشافات المدرعات والدبابات.

سقط الضوء على المكان أخيراً كاشفا عن عدد كبير من الجنود المصابين الملقين على الأرض وقد اخترق الرصاص صدورهم وأذرعتهم وسيقانهم وهم يتلوون ألماً..

وكان المنزل الذي أصابته قذيفتا الدبابتين يوشك على الانهيار.. وقد تدافع سكانه يغادرونه صارخين بملابس نومهم.. مختلطة بصرخات سكان الشارع المرتعبين.. ورواد الملاهي الذين غادروها في هلع وهم يحسبون حرباً خامسة قد نشبت مع العرب فبادروا بالفرار كأنهم يعرفون نتيجتها مقدماً!

ومن بعيد تعالت أصوات سيارات الشرطة التي اجتذبتها أصوات الانفجارات والرصاص.. شخص وحيد لم يكن له أثر في المكان..

كان هذا الشخص هو رقم (٧٠٠)..

ومن مكان ما برز الجنرال شامير موداعي، فألقى نظرة غاضبة متجهمة على الجنود المصابين والقتلى وآثار الدماء في المكان واقترب منه ذلك الشاب الملوث الوجه بالدماء الذي كان يتظاهر منذ لحظة بأنه الشاب الفلسطيني الهارب، وقام بأداء التحية العسكرية للجنرال قائلاً: إنه ليس الكولونيل موسى كنعان يا سيدي، فهو يتحدث العربية جيداً وقد ساعدني في تضليل قواتنا لظنه أنني فلسطيني هارب بعد أن انطلت الخدعة عليه.

عض الجنرال «شامير موداعي» على شفتيه في قسوة وغضب هاتفاً: لقد خسرنا الكثير هذه الليلة لكي نتأكد من حقيقة هذا الشيطان.. وأقسم أن شمس الصباح لن تشرق عليه حياً.. وسأكون أنا من ينفذ فيه حكم الإعدام بنفسي، وأنقل ذلك على الهواء مباشرة بواسطة التليفزيون لكل سكان إسرائيل!

ولم يحدث أن أقسم الجنرال «شامير موداعي» بقتل عربي.. ولم ينفذ قسمه أبداً!! فقد كانت تلك هي متعته الوحيدة في الحياة!

* * *

في قبضة السفاح

راقب ماجد من سطح البناية التي اختفى فوقها ما يجري بأسفل وقد اندفع الجنود يبحثون عنه في كل اتجاه، دون أن يفكر واحدهم في إلقاء نظرة لأعلى.

ومن مكانه شاهد الفلسطيني المزيف يؤدي التحية للجنرال «شامير» قبل أن ينصرف عن المكان فتلاعبت ابتسامة قاسية على وجهه وهو يقول لنفسه: إن هؤلاء الأوغاد يفترضون الغباء في كل من يتعاملون معهم..

(كان رقم (٧٠٠) قد شك منذ اللحظة الأولى في حقيقة ذلك الفلسطيني، وأدرك أن هناك خدعة ما في الأمر.. فالفلسطينيون لا يسمح لهم بالإقامة في «تل أبيب»، ولا تخرج الدبابات والمدرعات لمطاردتهم في منتصف الليل..

فهناك تكون المواجهة.. في «غزة» و«الضفة الغربية» وليس في قلب «تل أبيب»!

وزم ماجد شفتيه بقسوة قائلاً: لقد حصل الجنرال على ما يريد وأدرك أنني لست الكولونيل موسى، وهذا يمنحه نقطة زائدة.. ولكنها للأسف لن تفيده بشيء، لأن شيئاً ما لن يعرقلني عن القيام بما أنويه هذه الليلة!

وفي خفة الفهد تحرك ماجد فوق سطح البناية، وقفز منها إلى بناية قريبة وثالثة.. وحتى صار فوق سطح المبنى المجاور «للموساد»، لا يفصلهما غير شارع ضيق لا يزيد عرضه عن ثمانية أمتار.. ومن أسفل بدا مبنى «الموساد» غارقاً في السكون والصمت.. تراقب مداخله من أسفل عيون سرية يقظة لا تغفل ليل نهار.

ولكن من صمم نظام الحراسة كان ذا خيال محدود.. لأنه لم يتوقع أن يأتي العدو من أعلى.. وهو ما فعله ماجد.. فاستل من الحزام العريض حول ساقه بندقية السهام الصغيرة وصوبها إلى هدفه البعيد وضغط فوق الزناد وطار السهم يشق الهواء ثم استقر في جدار سطح
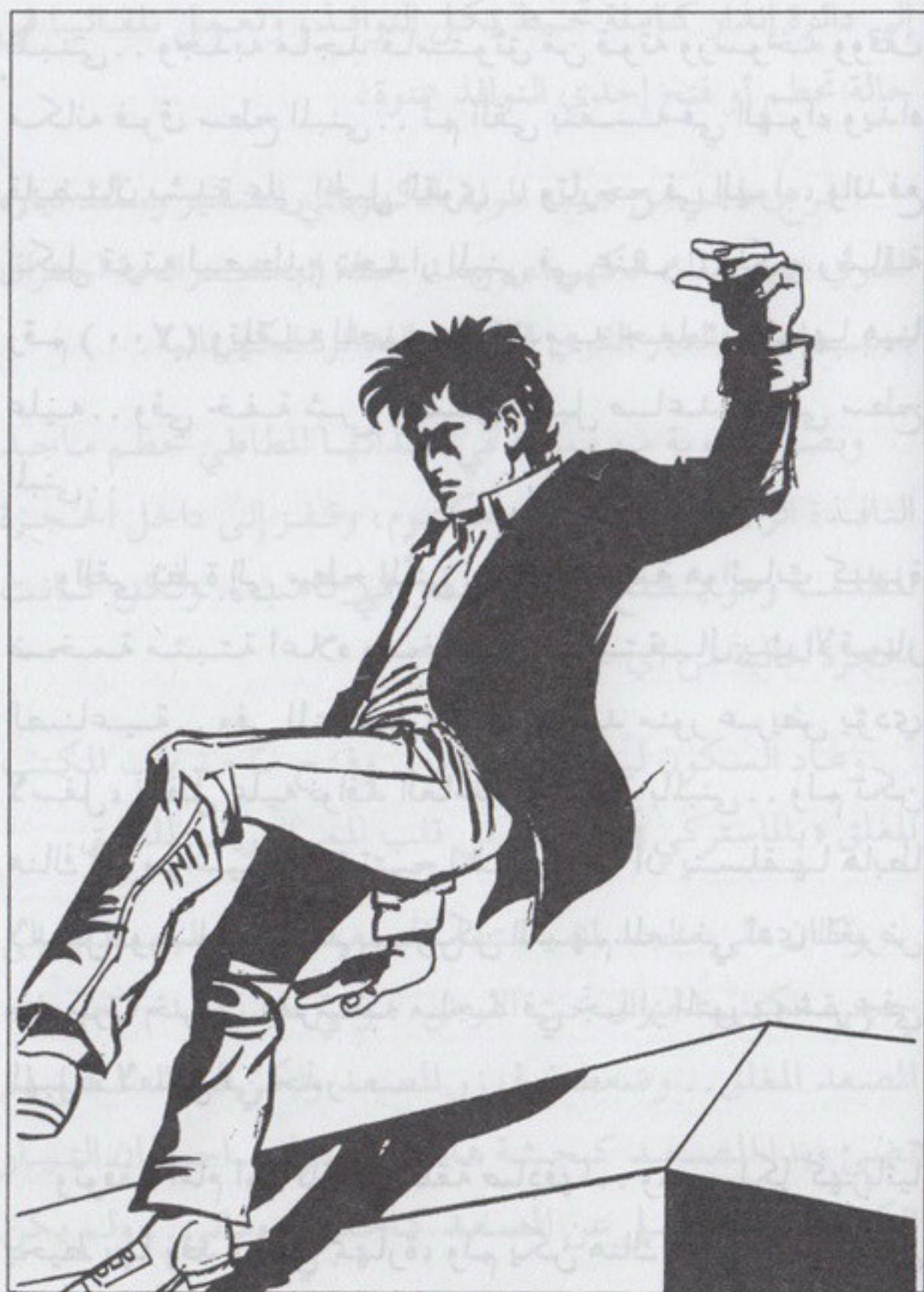
المبنى.. وجذبه ماجد فاستوثق من قوته ورسوخه ووقف مكانه فوق سطح المبنى.. ثم ألقى بنفسه في الهواء ويداه قابضتان بشدة على الحبل القوي.. وتأرجح في الهواء، واندفع بكل قوته ليصطدم بجدار المبنى في عنف.. ولكن رشاقة رقم (٧٠٠) وتلقيه للصدمة بقدميه جعلت وقعها هينا عليه.. وفي خفة شرع يتسلق الحبل صاعداً لأعلى سطح المبنى..

وألقى نظرة إلى سطح المبنى.. كانت ثمة هوائيات كبيرة ضخمة مثبتة أعلاه ومخصصة لاستقبال بث الأقمار الصناعية.. وفي المنتصف كان يوجد منور عريض يؤدي لأسفل، وتطل عليه نوافذ العاملين الصغار بالمبنى.. ولم تكن هناك أي مواسير بارزة تتيح لشخص ما أن يتسلقها هابطا لأسفل أو صاعداً لأعلى.. ولكن السهم المعدني أدى الغرض منه مرة أخرى.. فرشقه ماجد في جدار المنور، وشرع في الهبوط لأسفل في حذر..

وتوقف أمام أول نافذة مغلقة صادفها.. ولمح سلكا كهربائياً يحيط بها وقد أخفي بمهارة، ولم يكن هناك من شك أن يصل

إلى دائرة إنذار كاملة تحيط بكل النوافذ، وتعمل تلقائيا في حالة تحطم أو فتح إحدى النوافذ عنوة.

أخرج ماجد من جيبه المولد الكهربائي الصغير وسلّط تياره القوي على سلك الكهرباء، وبعد لحظة انبعثت رائحة احتراق بسبب إفساد التيار القوي المعاكس للدائرة الكهربائية.

وبضربة قوية من قدمه في حذائها المطاطي حطم ماجد النافذة الزجاجية في دوي مكتوم، وقفز إلى داخل الحجرة المظلمة وهو يتطلع حوله حذراً في تأهب.. ولكن كانت الحجرة خالية من أي عدو.

وعاد السكون ليشمل المكان.. وفتح ماجد باب المكتب المغلق «بالماستركي».. فصار في قلب الممر العريض للطابق..

وكان على ماجد أن يستقل المصعد السري ليهبط به إلى حجرة مكتب الجنرال تحت الأرض.. وفي حذر تقدم نحو باب المصعد المغلق.. وضغط فوق زر المصعد ولكن لمبة التشغيل لم تضئ وبدا المصعد كجثة هامدة. وأدرك ماجد أن التيار الكهربائي قد فصل عن المصعد كاحتياط وقائي.. ولم يكن

أمامه وقت كثير، فانتزع اللوحة الكهربائية المثبتة على جانب المصعد، ولامس المولد الكهربائي الصغير بأسلاكها.. وفي الحال أضيئت اللمبة المطفأة.. وتحرك المصعد صاعداً لأعلى في هدوء.

قفز ماجد إلى قلب المصعد وعاود الهبوط به مرة أخرى..

ووجد رقم (٧٠٠) نفسه أمام بهو الطابق بعد الأرض الغارق في السكون أيضاً.. وخطا بداخله ولكنه توقف عندما سمع صوت الخطوات القادمة..

وظهر حارس يحمل مدفعا رشاشاً وقد اجتذبه صوت توقف المصعد وفتح بابه.. وحملق الحارس في باب المصعد المفتوح المضاء وغمغم في دهشة بالغة: من الذي أعاد التيار الكهربائي للمصعد؟

أجابه صوت من الخلف يقول: لعلها أشباح يا عزيزي!

وطارت قبضة ماجد لتلقي بالحارس إلى قلب المصعد بلا حراك فاقداً وعيه.. فضغط ماجد على زر التشغيل فانغلق باب المصعد على الحارس وانطلق به صاعدا لأعلى.

التقط ماجد مدفع الحارس الرشاش ووقف متأهباً في مكانه المظلم.. ولكن المكان عاد ليغرق في الصمت والسكون..

وفي خفة وحذر تحرك صوب مكتب الجنرال شامير وكانت تضيء نهاية الممر لمبة صغيرة.. ولمح ماجد في ضوئها كاميرا تليفزيونية خفية في الركن أمام باب الحجرة.. ولم يكن من شك أن هناك عيونا ساهرة ترصد المكان بواسطة شاشات تليفزيونية تغطي الأماكن الحيوية داخل المبنى وتراقب ممراته الهامة.

ولكنها كانت مشكلة سهلة..

وخمن ماجد مكان خطوط الأسلاك الكهربائية داخل الحائط القريب.. ونبش في الجدار بسن سكين صغير.. وبرزت له ماسورة الكهرباء أخيراً فمزقها بسكينة.. وجذب أحشاء الماسورة من الأسلاك الكهربائية.

ولم يكن الوقت يتسع لماجد ليتأكد من أيها هو المتصل بالكاميرا التليفزيونية، فسلط المولد الكهربائي الصغير إلى الأسلاك، وبعد لحظة انتشرت رائحة الاحتراق وعم الظلام المكان وانتشر في الممر.

وتحرك ماجد بسرعة ودسَّ مفتاحه في قفل باب المكتب.. وانفتح الباب، وصار ماجد بداخل الحجرة في اللحظة التي اشتعلت فيها لمبة الممر مرة أخرى وقد عاد سريان الكهرباء إليها بواسطة المولد الاحتياطي وأسلاك الكهرباء البديلة لتكشف ما يدور في الطرقات وأمام الأبواب.

مسح رقم (٧٠٠) قطرة عرق تجمعت فوق جبهته..

كانت مهمة الليلة شاقة.. ولكنها توشك أن تكتمل.. واقترب من مكتب الجنرال وضغط فوق الزر الأحمر في ركنه فتحرك الجدار الخلفي كاشفاً عن الخزانة التي تحيط بها أشعة الليزر المتقاطعة.

وكان من المستحيل على ماجد إيقاف شعاع الليزر بأدواته البدائية..

لم يكن هناك غير حل وحيد وسريع..

حل كان يحتوي على بعض المخاطرة.. ولكن لم يكن هناك غيره.

وصوب ماجد مدفع الحارس الرشاش الذي حصل عليه صوب نهاية دائرة أشعة الليزر ثم أطلق دفعة رصاص..

ودوّى صوت الرصاص عنيفاً ارتج له المكان.. ولكن النتيجة كانت حسنة فقد اختفى شعاع الليزر بعد تحطم دائرة اطلاقه، فامتدت يد ماجد في سرعة لتدير قرص الأرقام السري.. كان يعرف أرقام فتح الخزانة السرية.

ولكنه، وقبل أن يخطو خارج حجرة المكتب سمع أصواتاً غاضبة وأقداماً مهرولة تتجه إليه.. وأدرك أن أمره انكشف.. سواء بسبب طلقات الرصاص التي أطلقها لإيقاف دائرة شعاع الليزر، أو ربما لأن الجنرال قد توقع هدفه داخل خزانة مكتبه فسعى إليه سريعا مع رجاله..

وكان من المستحيل على ماجد أن يغادر المكان بنفس الطريقة التي جاء منها عبر سطح المبنى.

ولم يكن أمامه غير حل وحيد.. وسريع يضمن له النجاة..

ودون تردد اندفع نحو باب المكتب، وصادفه حارسان مدججان بالسلاح فعاجلهما بطلقات رصاص ألقتهما على الأرض بسيقان محطمة.

واندفع إلى نهاية الممر قافزا السلالم للطابق الأول ومدفعه يفسح الطريق أمامه ورصاصاته تتناثر في كل مكان..

ولكن ومن الخلف اندفعت عشرات الأقدام تطارده..

وفي قلب المبنى راحت الكاميرات التليفزيونية جميعها ترصد ماجد.. ولكن ذلك لم يعد مهماً بالنسبة له.. ودفع بقدمه أول باب مغلق صادفه.. وتكشفت له حجرة واسعة مليئة بأجهزة الكمبيوتر تعلوها نافذة زجاجية عريضة تطل على شارع «الملك سول» وتعلوه بعشرة أمتار.

وغمغم ماجد لنفسه وهو يتأمل أجهزة الكمبيوتر حوله: لا يصح أن أترك المكان دون تذكار صغير يكون بمثابة تحية المساء لهذا الجنرال الوغد!

وألقى بالمولد الكهربائي فوق أقرب كمبيوتر إليه.. وفي الحال تصاعد شرر صغير من جهاز الكمبيوتر.. وتحول الشرر الصغير إلى لهب اندلع إلى بقية أجهزة الكمبيوتر وأمسكت النيران بكل شيء في الغرفة..

وعندها اندفع رجال «الموساد» إلى داخل الحجرة صارخين فواجهتهم ألسنة النيران اللافحة.. وأجهزة الكمبيرتر وهي تنفجر مطلقة بالشرر من قلبها..

أما نافذة الحجرة الزجاجية فكانت محطمة.. ولم يكن هناك أثر لماجد في المكان وقد ظهر واضحاً الطريقة التي غادر بها المبنى.

وصرخ بعض الضباط: أسرعوا بإطفاء النيران واستدعاء المطافئ.

وصرخ آخرون: طاردوا هذا الشيطان خارج المبني.

ولكن ما كادت قدما ماجد تلامسان الأرض من قفزته حتى اندفع جارياً بكل قوته وهو يطلق الرصاص في كل اتجاه ليخترق طوق الجنود المسلحين المحيطين بأسفل المبنى في حصار محكم.. ونجحت خطته وكان أثر المفاجأة فاعلاً فيها..

ولكنه ما كاد يعدو أقلّ من مائة خطوة في الطريق حتى سطعت أنوار قوية أحاطت به من كل اتجاه وغشيت عيناه..

ومن الأركان الأربعة برز عدد من العربات المصفحة المدجَّجة بالجنود ليقطعوا عليه طريق الهرب من كل اتجاه.. وقد اعتلى إحداها الجنرال شامير موداعي الذي اطلت من عينيه في تلك اللحظة نظرة كراهية عميقة..

وأدرك ماجد أنه قد سقط في الفخ.. وأن أي مقاومة ستكون نوعاً من الجنون والانتحار، فصوّب مدفعه نحو الكشافات الكهربائية لتحطيمها.. ولكن مدفعه أطلق تكة ضعيفة دون أن ينطلق منه أي رصاص..

وأدرك ماجد ان مدفعه قد فرغ من الرصاص...

وفي بطء تحركت يداه فألقى بسلاحه بعيداً..

وصرخ الجنرال في جنوده: اقبضوا على هذا الشيطان.

فانقض الجنود على ماجد مصوبين مدافعهم الرشاشة إلى رأسه وصدره.. فاستسلم رقم (٧٠٠) لهم دون مقاومة..

وراقب الجنرال جنوده وهم يقومون بتقييد ذراعي ماجد بالقيود الحديدية ثم أطلق ضحكة عالية وحشية..

ضحكة صائد قد أمسك بفريسته بين مخالبه أخيراً!

* * *

الفهرس

العملية القادمة :

أسوار الموت

يسقط «ماجد شريف» في قبضة «الموساد».. فيتفننون في تعذيبه بطريقة وحشية، ثم يبعثون به إلى اكثر سجونهم إثارة للرعب والهلع.. حيث تحيطه أسوار رهيبة يستحيل اجتيازها.. فهل يتمكن رجل المهام الصعبة من مغادرة هذه الأسوار.. أسوار الموت.. وإتمام مهمته في «تل أبيب»؟

هذه العملية:

تأليف: مجدي صابر

جحيم الثعالب

مرة اخرى تشتبك المخابرات المصرية مع المخابرات الاسرائيلية في معركة ضارية، وتفوز «الموساد» بالجولة الاولى وتتمكن من سرقة أخطر الاسرار الحربية.

ولكن رجل المهام الصعبة يقرر أن يقلب الوضع رأساً على عقب بمهمة جنونية يقتحم فيها «جحيم الثعالب» في قلب «تل أبيب». فماذا كانت النتيجة؟

للطبع والنشر والتوزيع
بيروت - لبنان

BLUE BIRD

Arab Comics.net
عرب كوميكس
و بلـو بيرد
M.Raafat
تحيا مصر

٣
سلسلة رجُل المهام الصعبَة
جحيمُ الثعالِب

سِلسِلة
رَجُل المهَام الصَّعبَة

المغامرة الثالثة والعشرون

جحيمُ الثعالِب

تأليف : مَجدي صَابر

دار الجيل
بيروت

الطبعة الأولى
١٩٩٥

دار الجيل
للطبع والنشر والتوزيع
بيروت - لبنان

ص.ب ٨٧٣٧ - برقياً : دار جيلاب - تلكس : ٤٢٦٤١ دار جيل

رجل المهام الصعبة:

إنها سلسلة جديدة حافلة بالاثارة والمغامرة نقدّمها لك أيها القارئ العربي الكريم..

ففي ظل عالم بات يعتمد كثيراً على أجهزة مخابراته ووسائلها السرية لتحقيق أهدافه.. وفي ظل ما يسمى بحرب المخابرات السرية.. وفي ظل أقصى درجة من المهارة والذكاء يبرز اسم «ماجد شريف».. فهو طراز جديد فريد لا مثيل له في عالم المخابرات..

وإذا كان «جيمس بوند» هو أسطورة الغرب في دنيا المخابرات.. فإن «ماجد شريف» هو الأسطورة القادمة من الشرق.. من الوطن العربي الكبير..

فهو الرجل الذي لا يقهر.. والذي يدخره رؤساؤه للحظة الأخيرة.. حيث لا يكون هناك حل آخر غير «ماجد شريف»..

ولم يحدث أن خيّب «ماجد» أمل رؤسائه فيه أبداً..

أبحاث سرية

أدار السفير المصري في إيطاليا، قرص الخزانة المصفحة الكبيرة التي كانت مخفاة في مهارة خلف لوحة فنية معلقة على الحائط، وكان هناك جدار آخر تتعين إزاحته قبل أن ينكشف جدار الخزانة وقرص أرقامها السرية.

كان جسد السفير يحجب الأرقام التي راح يديرها.. وقد وقف إلى الخلف شاب نحيل بدا عليه الانفعال وهو يراقب حركات السفير في توتر.

وأخيراً صدرت تكة ضعيفة عن باب الخزانة، وجذبه السفير فانقاد له، وامتدت يد السفير لتخرج بعض الأوراق والملفات حملها بحرص فوق ذراعه اليسرى، وباليمنى أعاد إغلاق باب الخزانة، والتفت إلى الشاب الواقف في مدخل الحجرة وحدجه

بنظرة صامتة مقطبة، ثم قال: إنها مهمتك الأولى يا عزت.. وأرجو ألا تكون هناك أي أخطاء.

فأجابه الشاب في حماس: ثق أنني سأكون عند حسن ظنك يا سيدي.

مسح السفير قطرة عرق باردة تجمّعت فوق جبهته وهو يقول: ليس عليك غير أن تتجه إلى المطار لتستقل الطائرة المصرية العائدة مباشرة إلى القاهرة.. وتقوم بتسليم هذه الأوراق إلى وزير الخارجية أو من ينوب عنه مباشرة من الوزراء المفوضين.. إنها أوراق مهمة جدا غير مسموح أن يطلع عليها أي إنسان آخرّ مهما كان.

أجاب سكرتير السفارة: سأفعل ذلك بالضبط يا سيدي.

قطب السفير ما بين حاجبيه، وقال في صوت عميق بارد:

لقد اخترت لسفرك طائرة متجة إلى القاهرة مباشرة دون أن تتوقف في أي مطار آخر ترانزيت.. تحسبا لأي مفاجأة.

بانت الدهشة على وجه سكرتير السفارة وتساءل في قلق: سيدي.. هل هناك مشكلة ما؟

لم ينطق السفير على الفور.. ففي عمله تعلم منذ كان سكرتيرا ثالثا في بداية عمله الدبلوماسي قبل ثلاثين عاما، أن العمل الدبلوماسي عماده الكتمان والكياسة.. وهو ما كان يريد أن يلقي بالخوف في قلب ذلك الشاب الغض الذي وصل إلى «روما» قبل شهر واحد فقط.. بعد تخرجه من كلية الاقتصاد مباشرة، وحصوله على شهادة الماجستير، وهو بذلك يظن أنه حصل على نصف معارف الدنيا!

وتشاغل السفير بوضع الملفات والأوراق داخل الحقيبة الديبلوماسية السوداء، وأدار أرقامها السرية في مهارة، وقد تعمد أن تخفي أصابعه تلك الأرقام.. وعندما رفع عينيه إلى الشاب الواقف أمامه، كانت عينا السكرتير لا تزالان تنطقان بذلك التساؤل الحائر.

وحسم السفير تردده وصراعه قائلا: إنني سأخبرك بشيء من المفترض ألا أخبرك به.. وإنه سر أيضاً، ولكني أفعل ذلك لتكون على بينة من أهمية العمل الذي ستقوم به حالا.. ومدى خطورته.

وصمت السفير لحظة والسكرتير الشاب يراقبه بعينين واسعتين مليئتين بالإثارة والتلهف، ثم أضاف السفير وهو يزفر بقوة: إن هذه الحقيبة الديبلوماسية التي ستعود بها إلى القاهرة تحتوي على أسرار مهمة وخطيرة جدا. . فأنت تعرف أننا نمتلك بعض الغواصات وهي تسير بالطاقة العادية. . وقد كانت الحكومة المصرية تأمل في دعم أسطولها ببعض الغواصات النووية ولكنها أمنية مستحيلة، فهذه الغواصات تبلغ تكلفة الواحدة منها اكثر من مليار دولار، وهو ما تعجز عنه ميزانيتنا في الوقت الحالي ولسنوات عديدة قادمة، فهو أمل بعيد بالنسبة لنا. ولكن إحدى شركات بناء الغواصات الإيطالية استطاعت تحقيق المعجزة وهي تحويل نوع خاص من الغواصات العادية إلى غواصة نووية، تدار بالطاقة النووية، بل ولها القدرة على حمل رؤوس وصواريخ نووية أيضاً!

غمغم السكرتير في ذهول: ولكن هذا مستحيل يا سيدي، فإن اختلاف التصميم والقدرة على الغوص لأعماق بعيدة يختلف في الحالتين..

قاطعه السفير: لقد تغلب أحد مهندسي تلك الشركة الإيطالية على كل تلك العقبات، وأمكنه تحويل النموذج العادي إلى غواصة نووية بإمكانيات لا تتعدى المائة مليون دولار لكل غواصة، وهو ما يجعل ثمن تلك الغواصة بعد تحويلها إلى غواصة نووية ثمنا يسيرا يساوي ثمن الغواصة العادية.. وهذه الأبحاث كنا نظن أنها تجري في سرية تامة، ولهذا قام الملحق العسكري في روما بالتفاوض مع هذه الشركة لتحويل بعض غواصاتنا للطاقة النووية.. وقد سارت المفاوضات سيراً حسنا واتفقنا على كل التفاصيل.. وهذه الحقيبة التي تحملها توجد بداخلها كل تلك التفاصيل.. وتفصيل واف لتلك الأبحاث.

اتسعت عينا عزت وهو يحدق في الحقيبة بلسان جاف؛ وقد أدرك عظم المسئولية التي بات يحملها.. وواصل السفير: إن هذه الأوراق كفيلة بتحويلنا إلى دولة نووية، لأن تلك المفاعلات التي ستبنى داخل غواصاتنا سيلزم لها أولا بناء مفاعل نووي صغير سيقام في سرية تامة وبإمكانيات بسيطة، وهو ضمن العرض الذي تقدمه تلك الشركة الإيطالية.. ولا

شك أنك تدرك أن دولاً عديدة يهمها أن تصل إلى تفاصيل هذا العرض المثير.. وأن هناك دولة بالذات يهمها جدا أن تمنع هذا الاتفاق بأي ثمن.. ووصول تلك الأوراق والعروض بكافة التفاصيل.. إلى مصر.. بل وحاولت هذه الدولة التفاوض مع مبتكر هذا التعديل وهو المهندس الإيطالي العبقري لكي تحتكر هذا الابتكار مقابل مئات الملايين من الدولارات، ولكنه رفض.. ومن ثم يمكننا أن نتوقع أنها ستحاول الحصول على الأوراق والأبحاث بأي وسيلة أخرى مهما كانت.

غمغم عزت في صوت جاف متحشرج: ولماذا.. لماذا لم تبعثوا هذه الأوراق بالفاكس يا سيدي؟

أشاح السفير بيده قائلا: لأن أية وسيلة غير آمنة فيمكن لأي جهة تمتلك تكنولوجيا متقدمة أن تتداخل في خطوط الفاكس وتلتقط رسائلنا، وتطَّلع على تفاصيل الأبحاث. وهو ما لا نريده.. في الوقت الحالي في الأقل.. ولذلك لا يتبقى أمامنا غير إرسال هذه الأوراق إلى القاهرة بالوسيلة العادية.

وحدَّق السفير بقوة في السكرتير الشاب قبل أن يضيف في صوت عميق: ودون أن يحدث ما يعكر صفو رحلتك.

غمغم عزت بصوت مرتبك: وهل.. هناك ما يتهدد تلك الرحلة حقا.. أعني هل لديكم معلومات مؤكدة في هذا الشأن؟

أشعل السفير غليونه من العاج الأسود عليه نقوش دقيقة.. ومسح فوق جبهته بكف يده قبل أن يجلس، والتقط بضعة أنفاس من الغليون أطلقها في فراغ الحجرة التي تعبقت برائحتها، وقال في صوت عميق: لقد اكتشفنا أن هناك من يحوم حول مبنى السفارة منذ وصلتنا هذه الأوراق.. ولك أن تتخيل ذلك الخطر الذي يمكن أن يحيط بك إذا ما استنتجنا أنهم من «الموساد»!

أحسَّ عزت أن ركبتيه لا تكادان تقويان على حمله بعد أن سمع الكلمة الاخيرة،.. فاستند على مقعد بجواره وتهاوى فوقه، وتحسس نظارته الطبية فوق عينيه.. كان بصره زائغا وحلقه جافا وهو لا يجد ما يقوله.. وغمغم أخيراً:

ولكن يا سيدي.. ألم يكن من الأفضل في هذه الحالة أن يقوم بالمهمة أحد الضباط في السفارة أو حتى رجال المخابرات فهم معتادون على مواجهة مثل تلك المخاطر؟

أطلق السفير دخاناً كثيفا من فمه وهو يقول مطمئنا: لا تخشَ شيئا.. لقد وضعنا كافة الاحتمالات في حسباننا.. فسوف يرافقك إلى المطار أربعة من حراسنا الأكفاء في سيارة مصفحة، سيؤمنون وصولك إلى الطائرة سالما.. وفي الطائرة لن تخشى شيئا لأنها ما أن تقلع من مطار روما حتى تكون قد صرت في أمان لأنها ستهبط في القاهرة مباشرة، وهناك ستجد سيارة خاصة بالمخابرات تنقلك مباشرة إلى وزارة الخارجية.

ارتجفت شفتا الديبلوماسي الشاب.. وأراد أن يقول شيئا، ولكن الكلمات لم تسعفه، كان قبل دقائق يظن أنه من السعداء وقد تحققت كل أحلامه فصار ديبلوماسيا في إحدى بلدان أوروبا.. ذلك الحلم الذي راوده طويلا.. ولم يكن يظن أن هناك ما سيفسد أحلامه، وأن الواقع أشد تعقيداً وخطرا من الأحلام!

واقتربت أصوات خطوات من مدخل المكتب.. وظهر في الباب أربعة أشخاص ذوي أجساد قوية وملامح قاسية صارمة.. فنهض السفير قائلا لسكرتيره الشاب: ها قد وصل مرافقوك.. فاستعد للرحلة.

تمالك عـزت نفسـه ونهض مـتـخـاذلا . . وامـتـدت يداه إلى الحـقـيـبـة الديبلوماسـيـة فاحـتـضنهـا بقـوة . . وحـانت منه نظرة فضولية إلى مرافقيه الأربعة يطل منها خوف وتوجس، وعندما لمح أسلحتهم البارزة من تحت ستراتهم الثقيلة أحس بشيء من الاطمئنان والتوتر في الوقت ذاته .

ومد السفير يده مصافحا سكرتيره الشاب الذي استدار خارجا من المكتب وقلبه يدق في عنف .

اختطاف حقيبة دبلوماسية

وأمام باب السفارة كانت تنتظر سيارة مرسيدس سوداء مصفحة ذات ستائر مسدلة.. جلس عزت في مقعدها الخلفي يحيط به اثنان من الحراس، وقد جلس الآخران في المقعد الأمامي وعيونهم تأكل الطريق وتتطلع في كل اتجاه بحذر شديد..

ولكن لم يكن هناك ما يريب طوال الطريق.. ولا كان هناك أثر لسيارة أخرى تتعقبهم أو عيون ترصدهم.. وتوقفت السيارة أخيراً أمام مطار «روما».. فأخذ ركابها أماكنهم في قاعة الانتظار أمام صالة الجوازات، وألقى أحد الحراس الأربعة نظرة إلى ساعته ثم رفع عينيه إلى عزت قائلا: تبقت عشر دقائق على إقلاع طائرتك.. ولن تتوجه إليها قبل النداء الأخير عليها.

أومأ السكرتير الشاب برأسه موافقا دون أن ينطق.. وعندما أعلن الميكروفون الداخلي عن النداء الأخير على طائرة مصر للطيران المتجهة إلى القاهرة، أومأ الحراس الأربعة لعزت، فنهض من مكانه وتحرك في ارتباك وتوتر إلى ضابط الجوازات.. وعندما أبرز له جوازه الديبلوماسي الأحمر اللون أشار له الضابط بالاتجاه مباشرة إلى الطائرة.

وعندما حط عزت قدميه فوق سلم الطائرة أحس بالأمان لأول مرة.. وأمام باب الطائرة استدار فلمح حراسه الأربعة واقفين على البعد ينظرون إليه في صمت، فلوح لهم باسماً وقد استعاد ثقته بنفسه، ثم اتجه إلى مقعده والتقط نفسا عميقا وهو يشد حزام الأمان حوله مستجيباً لنداء قائد الطائرة، وقد وضع الحقيبة الديبلوماسية إلى جواره في حرص وعيناه لا تغفلان عنها.

وأخيراً اندفعت الطائرة فوق أرض المطار، وارتفعت بمقدمتها عاليا.. وبعد ثوان قليلة صارت على ارتفاع آلاف الأقدام عن الأرض..

وأوشك عزت أن يطلق ضحكة عالية يسخر بها من مخاوفه، وهمس لنفسه باسما: لقد كانت مخاوفي بلا داعٍ.. وليس هناك ما هو أسهل من العمل الديبلوماسي.

وتنبه لأول مرة إلى جارته الحسناء ذات الملابس السوداء التي راحت تنهنه باكية وهي تمسح دموعها بحرقة، وغمغم عزت مرتبكا لها: سيدتي لماذا تبكين؟

فأجابته بعينين غارقتين في الدموع: لقد توفي والدي منذ يومين فجأة في القاهرة.. فاستقليت أول طائرة عائدة إلى مصر.. آه يا والدي العزيز.

أحس عزت بالألم للحسناء الشابة.. كان يرغب في مواساتها، وانتابه إحساس أنه رآها من قبل، وأن ملامحها مألوفة لديه.. فقال مشفقا: إنني آسف من أجلك، وأقدم عزائي الخالص لأجل وفاة والدك.. ولكن.. ألم نتلاق من قبل؟

فحدقت فيه الشابة الحسناء لحظة بعينين واسعتين وقد كفت عن البكاء، ثم هتفت غير مصدقة: إنك أنت عزت الدمنهوري.. لقد كنت جارنا في «الحلمية» منذ عشر سنوات.. أليس كذلك؟

وفي الحال تذكر عزت الحسناء فهتف غير مصدق: وأنت فريدة جارتنا.. ابنة الحاج مدبولي.. فيا لها من مصادفة غير عادية أن نتلاقى على ارتفاع آلاف الأقدام عن الأرض!

وفي الحال تداعت إلى رأس عزت ذكريات عزيزة لم تمر عليها سنوات طويلة.. عندما كان لا يزال طالبا بالمرحلة الإعدادية وقد اعتاد الوقوف وقتا طويلاً في شرفة مسكنه في انتظار أن تطل عليه فريدة بنظرة يسعد بها طوال اليوم كله، ويحلم أنه تخرج في الجامعة وتقدم للزواج منها.. ولكن بعد أن رحلت مع عائلتها إلى حي آخر انقطعت الصلة بينهما..

وماتت أحلام المراهقة.. ولكن ها هي فريدة تظهر له بطريقة لا تخطر على البال، وفي ظروف عجيبة حقا.

وفي لهفة سألها: وأنت.. هل تزوجت؟

فهزت رأسها نافية وقد توقفت عن البكاء فبان صفاء عينيها وزرقتهما الخالصة، وهمست فريدة في صوت رقيق: إنني بعد أن تخرجت في كلية الفنون الجميلة بتقدير عال جدا أرسلتني

الجامعة في منحة دراسية إلى «روما»، لدراسة الفن الإيطالي والحصول على الماجستير والدكتوراه منذ عامين.

دق قلب عزت طربا.. وأحس أن تلك الصدفة التي قذفت له ليلاقي حسناءه بعد كل تلك السنين وفي توقيت مناسب جداً، هي صدفة لا يمكن أن تكون عبثا.. وشعر بشوقه القديم إليها يتجدد هادراً، فغمغم في انفعال لاهثا: أنا أيضاً لم أتزوج.. وقد عُينت حديثا في سفارتنا بـ «روما» بعد أن انتهيت من دراستي والماجستير واجتزت امتحانا للعمل الدبلوماسي.

فرمقته فريدة بنظرة متألقة كأنها أدركت ما يقصده.. فنكست بصرها في خجل.. وقد بدا من الواضح عليها أنها سعدت بلقاء عزت وأن أحلامها القديمة قد تجددت فجأة أيضاً.. وأن ما يمنعها من إظهار فرحتها لم يكن غير تلك الملابس السوداء الحزينة التي ترتديها.

وهمست وهي تمسح دموعها: إنني أشعر بقليل من البرد، هل يمكنك أن تطلب لي شاياً أو أي مشروب ساخن.

وحدقت في عينيه متلهفة وهي تضيف: لنشربه معا.

فضغط عزت على زر استدعاء المضيفة.. وعندما أقبلت طلب منها فنجانين من الشاي الدافئ.. احتسياه وهما ينظران بعضهما إلى بعض في شيء من الخجل والارتباك..

ومرت ساعة في حديث هادئ استعادا به ذكريات الماضي.. وشعر عزت بخدر لذيذ كأنه يرغب في النوم ربما لأنه قضى الليلة السابقة ساهراً يرتب أوراقه وحاجياته.. وفجأة علا صوت قائد الطائرة يقول: لقد حدث عطل فني في محركات الطائرة.. وسنضطر إلى الهبوط اضطراريا فوق جزيرة مالطة لإصلاح العطل.

فشعر عزت بقلبه يدق في عنف.. كانت المفاجأة غير متوقعة وبدأ يشعر بالخطر مرة أخرى، ولاحظت فريدة توتره فسألته بدهشة: ماذا بك؟

ولكنه استعاد ثباته مرة أخرى مفكراً في أن ذلك العطل قد حدث فجأة ويجب ألا يسبب أي قلق له أو لجارته، فاستعاد ابتسامته وهو يقول لفريدة: لا شيء.. لقد تضايقت قليلا فقط وبسبب تأخر وصولنا إلى

القاهرة.. ولكن إصلاح العطل لن يستغرق وقتا طويلا على أي حال.

وبعد دقائق كانت الطائرة تهبط فوق ممر مطار «باليرمو» وقد هبط الليل على العاصمة المالطية وأضيئت أنوار ممرات الهبوط.. جاء صوت المضيفة لركاب الطائرة هادئا في الميكرفون الداخلي يقول: رجاء مغادرة الطائرة والانتظار في صالة الترانزيت.. وستجدون هناك كل الخدمات.

وكررت المضيفة النداء.. وبعد لحظات بدأ الركاب يهبطون من سلم الطائرة حيث كان في انتظارهم عدد من سيارات الأتوبيس الضخمة حملتهم إلى قاعة الترانزيت المغلقة.. التي كان من غير المسموح لأحد بمغادرتها.

واندهشت المضيفة عندما شاهدت ذلك الراكب الشاب الجالس في مقعده قد غرق في نوم عميق.. أما رفيقته فكانت قد غادرت الطائرة مع بقية الركاب.

واقتربت المضيفة من الشاب.

وراحت تهزه بشدة هاتفة: سيدي.. يجب أن تستيقظ فسيتم قطر الطائرة إلى ورشة للإصلاح، ومن غير المسموح بقاء أحد ركابها بداخلها.

ولكن الشاب لم تظهر عليه استجابة.. وعندما امتدت يدا المضيفة تتحسس نبضه شهقت في انزعاج.. كان النبض متباطئا كأنما تنسحب الحياة من بدن صاحبها.. وأسرعت المضيفة تلتقط جواز سفر الشاب لتلقي عليه نظرة قبل إبلاغ المسؤولين في المطار واستدعاء سيارة إسعاف.

وكان جواز سفره ديبلوماسيا.. واسم صاحبه المدون فيه عزت الدمنهوري.. أما حقيبته التي كانت بجواره منذ لحظات، فقد اختفت تماما!

***

وفي نفس اللحظة كان يجري مشهد آخر قريبا من الطائرة الرابضة فوق أرض المطار.. فقد استغلت ذات الملابس السوداء تَدافُع ركاب الطائرة لركوب الأتوبيسات، وتحركت في حذر مبتعدة عن المكان وقد أخفاها الظلام عن العيون، وقد احتضنت إلى صدرها حقيبة سوداء ذات أرقام سرية، وعلى

مسافة قريبة كانت هناك سيارة صغيرة ذات زجاج أسود تنتظر في أحد الاركان المظلمة، وكان وجودها في ذلك المكان غريبا، فقد كان من غير المسموح وجود سيارة في ذلك المكان بجوار ممرات الهبوط.

ولكن ذات الملابس السوداء اندفعت نحو السيارة الصغيرة، وما أن فتحت بابها واستقرت بداخلها، حتى انطلقت بها السيارة مبتعدة..

وكان ثمة عامل قريب قد انشغل في تنظيف ممر الهبوط من الأوساخ، وعندما شاهد ما حدث اندفع خلف السيارة الصغيرة هاتفا: أنت أيتها الحسناء.. إلى أين تذهبين.. ومن الذي أتى بتلك السيارة إلى ممر الهبوط؟

ولكن رصاصة مكتومة انطلقت من السيارة الصغيرة، فأصابت العامل في جبهته وأخرسته على الفور، فترنح العامل وسقط على الأرض دون حراك، وقد ظهر ثقب صغير في جبهته تفجرت منه الدماء.

وفي نهاية الممر كانت هناك طائرة صغيرة قد تأهبت للإقلاع فتوقفت السيارة الصغيرة بفرامل حادة إلى جوارها، وقفزت ذات

الملابس السوداء من داخل السيارة وهرولت صاعدة سلم الطائرة الصغيرة.

وفي الحال انغلق باب الطائرة أتوماتيكيا واستدارت مقدمتها ثم شرعت في الجري فوق أرض المطار..

وبعد لحظات كانت قد ارتفعت في الفضاء ميممة وجهتها لعبور البحر الأبيض المتوسط.. ورفع قائدها يده بعلامة النصر لذات الملابس السوداء، ثم شرع في الاتصال باللاسلكي.. ليهنئ شخصا ما عبر البحر بنجاح العملية..

شخص كان يجلس في مبنى «الموساد».. في قلب «تل أبيب»!!

***

العقل الجهنمي

حدق ماجد شريف في السيد «م» بدهشة لا تخفى.. كان رئيسه قد انشغل بإشعال غليونه وراح بعدها يلتقط أنفاسه متلذذا.. وحدق في ماجد بدوره وهو يقول:

- إن سفيرنا في «روما» يستعمل نفس النوع من التبغ.. وإن كان يمتلك غليونا نادرا يزيد عمره عن مائة عام.. وهو تحفة فنية دون شك!

كانت لهجة «م» تبدو خالية من أي سبب للتوتر بالرغم من كل ما قصّه على رقم (٧٠٠) منذ لحظات.. ولم يستطع ماجد أن يكتم دهشته أكثر من ذلك فتساءل: لقد كانت «الموساد» الإسرائيلية هي التي تقف خلف ما حدث لسكرتير السفارة.. أليس كذلك؟

أشاح «م» بيده في تأكيد قائلا: إنهم هم طبعا.. فمن غيرهم يتمتع بهذا القدر من القذارة؟

تضاعفت الدهشة في عيني ماجد واعترض قائلا: ولكن يا سيدي ما علاقة تلك الفتاة فريدة مدبولي بـ«الموساد».. وكيف ومتى قاموا بتجنيدها و..

ولكن السيد «م» قاطع ماجد بدوره بإشارة من يده رافعا حاجبيه في اعتراض قائلاً:

- لماذا لا تجعل خيالك ينشط قليلا كالمعتاد يا رقم (٧٠٠)، فكيف يمكن أن تكون هناك أية علاقة بين تلك الفتاة البريئة بعد أن رسبت في الثانوية العامة عدة مرات فرأى والدها أن من الأفضل تزويجها فصارت أما لأربعة أطفال، وبين «الموساد» الإسرائيلية التي لم تسمع باسمها في حياتها أبداً!

اتسعت عينا ماجد وظهر فيهما وميض حاد غاضب، وغمغم بصوت حار: لقد بدأت أفهم يا سيدي.. لقد كانت خدعة من أجل اجتذاب عزت إلى الشرك.. فهذه الفتاة ذات الملابس السوداء التي قابلها عزت في الطائرة لم تكن هي.. فريدة.

دق السيد «م» حافة مكتبه هاتفا: بالضبط.. لقد بحثوا في سجلات عزت منذ كان طفلا إلى أن اكتشفوا تلك القصة القديمة التي يمر بها كل شاب في عمر المراهقة.. واستطاع هؤلاء الأوغاد بطريقة ما أن يحصلوا على صورة لملامح فريدة وهي في سن الخامسة عشرة.. وعندما عثروا عليها بعد زواجها اكتشفوا أن جمالها قد انطفأ وذبل وأن ملامحها تغيرت تماما بسبب مشقة تربية أربعة أطفال ولدتهم تباعا كالأرنبة.. ولأن «الموساد» تتمتع بخيال واسع لا يسعنا غير الاعتراف به، لذلك أدخلوا صورة فريدة إلى جهاز كمبيوتر خاص.. فقام هذا الجهاز بترجمة الملامح بعد عشر سنوات في حالة لو أن فريدة لم تكن قد تزوجت أو أنجبت.. فكانت هي ملامح تلك الفتاة الجميلة التي قابلها عزت في الطائرة العائدة إلى القاهرة.. ويمكننا أن نستنتج بسهولة أنهم عثروا على هذه الفتاة في مكان ما داخل إسرائيل، وحتى لو كان هناك أي اختلاف ما بين صورة فريدة المفترضة بعد عشر سنوات وتلك الفتاة التي قامت بدورها، فمن السهل بواسطة جراحة تجميلية سريعة وبسيطة أن يجعلوها شبيهة تماماً بفريدة.. ثم احتجزوا المقعد المجاور لها في

نفس الطائرة والتي سيعود بها عزت إلى القاهرة.. وكان تظاهر تلك الفتاة بوفاة والدها وارتداؤها الملابس السوداء لزيادة الحبكة، ولكي لا ينتبه عزت إن كان ثمة فارق بين تلك الفتاة وفريدة، وقد نجحت خدعتهم كما ترى تماما.. وانشغل عزت بمواساة الحبيبة المزعومة دون أن ينتبه لأي خدعة!

قطَّب ماجد حاجبيه في غضب مكبوت.. كانت أشد المواقف إثارة لا تكاد تخرجه عن طباعه الباردة وتحكمه في مشاعره، ولكنه لم يستطع غير أن يقول غاضباً: إن ما حدث يثبت أن «الموساد» أنشط مما ظننا.. فمن الواضح نظرا للسرعة التي قاموا بها بالعمل، أنهم في اللحظة التي يصل فيها أحد دبلوماسيينا للخارج فإنهم يسعون بسرعة للحصول على أقصى المعلومات عنه، حتى في طفولته لاحتمال الاستفادة بها في المستقبل.. وكذلك عثورهم على تلك الفتاة الشبيهة بفريدة بمثل هذه السرعة وركوبها الطائرة نفسها، يدل على أنهم يتحركون بسرعة بالغة.. ومهارة أيضاً.

نهض السيد «م» ولوح بيده قائلا: نحن لا نستطيع أن ننكر ذلك أبداً.. فأعداؤنا يتمتعون بمهارة واضحة.. كما ترى فقد

تخلوا عن أساليبهم القديمة في إطلاق الرصاص والقنابل ليحصلوا على ما يريدون.. فصاروا يخططون ويعملون في دهاء ومكر ولا يلجأون للرصاص إلا قليلا.. وقد أثبت هذا الأسلوب نجاحه في النهاية.. وبالطبع لنا أن نتخيل أنهم هناك في إسرائيل كانوا يتوقعون سقوط عزت في شرك، وأنه لن ينتبه إلى المادة المخدرة التي أسقطتها عميلتهم في شايه الساخن بحيث لا يبدأ مفعولها إلا بعد ساعة كاملة عند وصول الطائرة فوق جزيرة مالطة.. حتى يمكن لعميلتهم الحصول على الحقيبة الديبلوماسية في هدوء حيث كانت تنتظرها طائرة خاصة صغيرة مباشرة إلى «تل أبيب».. أما ذلك العامل المسكين الذي ساقه سوء حظه ليشاهد ما جرى فكان نصيبه رصاصة في رأسه أفقدته حياته في الحال.

تساءل ماجد في اهتمام: وعزت الدمنهوري؟

زم السيد «م» حاجبيه في تقطيب قائلا: لقد تمكنوا من إنقاذه وإفاقته من جرعة المخدر القوية التي كادت تقضي عليه وتتسبب في إيقاف قلبه.. وهو الآن في حالة ذهول تام مما جرى.. ويكاد يقتل نفسه حسرة على ما جرى له ولا يصدق

حتى الآن أن تلك الفتاة لم تكن هي نفسها فريدة مدبولي..
حلم المراهقة.

مط ماجد شفتيه في عدم رضا.. وتساءل في استياء: ألم يكن من الأفضل لسفيرنا في «روما» استخدام شخص محترف في المخابرات لنقل الحقيبة، فإنه ما كان يمكن خداعه.. بمثل تلك الطريقة؟

ولكن السيد «م» لم يكن بنفس القدر من الحماس، وقال: إن وزارة الخارجية لها طرقها في العمل.. ولا يمكننا أن نتدخل فيها.

- إذن فقد طارت الأبحاث والأوراق إلى «تل أبيب»؟

- نعم.. وهي الآن في قلب مبنى «الموساد» في «تل أبيب».

- ولماذا لم يبعثوا بها مباشرة إلى الحكومة الإسرائيلية؟

تلاعبت ابتسامة صغيرة على وجه «م» وقال: إنهم لن يبعثوا بها إلى هناك قبل أن يحلوا طلاسم «شفرتها».

تعقد حاجبا ماجد وهتف: إذن فهذه الأوراق مكتوبة بـ«الشفرة»؟

هتف «م» محتجا: وماذا تظن يا رقم (٧٠٠).. إن الخارجية لم تكن لتخاطر بإرسالها هكذا.. لقد قام بعض خبرائنا في «روما» بتحويل كل الأوراق إلى «شفرة» معقدة جدا لا يملك مفتاحها في القاهرة غير أحد وزرائنا المفوضين.. وبعد أن وقعت الحقيبة بأوراقها في يد «الموساد»، اعتقد أنهم سيستغرقون أسبوعا أو اثنين في حلها مع الاستعانة بأفضل خبرائهم.. وهو ما يمنحنا الوقت الكافي للعمل.. قبل أن يستخدم الإسرائيليون الأبحاث لصالحهم.. فيحولوا كل غواصاتهم.. إلى غواصات نووية!

تراجع ماجد إلى الوراء في اعتراض قائلاً: ولكن الأمر ليس بمثل هذه البساطة يا سيدي.. إنهم في حاجة أولاً لمساعدة ذلك الخبير العبقري الذي اخترع عملية التحويل، فهو الوحيد القادر على تطبيق هذه الأبحاث وتحويلها إلى واقع عملي و.. قاطعه السيد «م» بعينين واسعتين في صوت مندهش قائلاً: ألم أخبرك بعد.. لقد حصلوا على هذا الخبير.. بالرغم من أنهم كانوا قد تقدموا إليه من قبل طالبين شراء أبحاثه بأي ثمن، ولكنه رفض ذلك لأنه لم

ينس أن والديه قد قتلا على أيدي اليهود في الحرب العالمية الثانية . .

ضاقت عينا ماجد وهو يتساءل في دهشة : وهل أقنعوه أخيراً بالتعاون معهم وبتلك السرعة برغم كل ما فعلوه بأسرته من قبل ؟

مط السيد « م » شفتيه في استياء مجيباً : إنهم لم يقنعوه بعد . . فلا شك أنه لا يزال يعاني من متاعب رحلته من « روما » إلى « تل أبيب » وهو راقد داخل أحد التوابيت المغلقة باعتباره جثة يهودي مشحونة من « روما » إلى « إسرائيل » .

هتف ماجد : لقد فعلوها مرة أخرى . . واختطفوا هذا الخبير وشحنوه إلى « تل أبيب » ليجبروه على أن يكون في خدمتهم . . أليس كذلك ؟

رفع السيد « م » حاجبيه في حماس قليل قائلا : إن هذا يوضح لنا مدى المهارة التي صاروا يتمتعون بها . . والتي تفصح أنه قد صار على رأس « الموساد » عقلية جهنمية تخطط وتدبر . . ولم يفشل تخطيط هذا العقل حتى الآن !

ومال السيد «م» على ماجد وهو يضيف: إنه الجنرال شامير موداعي.. والذي كان يرأس وحدة خاصة لاغتيال الفلسطينيين المشتركين في الانتفاضة داخل الأرض المحتلة، ونظرا لمهارته الخاصة التي بدأها بتنكر رجاله في زي الفلسطينيين واندساسهم داخلهم، تمَّ اغتيال الأعضاء النشيطين في الانتفاضة.. وقد تسبب بهذه الخدعة في قتل ما لا يقل عن ٥٠٠ فلسطيني حتى الآن.. دون أن تشير إليه أصابع الاتهام أبداً. حز ماجد على أسنانه في غضب حاد هاتفا: هذا الوغد.. لقد كافأوه بنقله لـ«لموساد».. ولكنها ستكون المكافأة الأخيرة التي يتلقاها في حياته!

وضع السيد «م» يده على كتف ماجد قائلا: هذا ما نرجوه يا رقم (٧٠٠).. فإن هذا الرجل خطر.. خطر جداً.. وسأكون سعيداً جدا لو أنك تمكنت من إرساله إلى الجحيم.

هب ماجد واقفاً وهو يقول: لن يسعدني أكثر من أن يلحق هذا السفاح بكل من أرسلتهم قبله إلى هناك.. لينعم بصحبتهم الأبدية في جهنم.. ولكن يا سيدي لقد تعقدت المشكلة باختطاف الخبير الإيطالي.. فحتى لو حصلنا على

تلك الأبحاث المسروقة فإنها بدون وجود هذا الخبير ستكون عديمة الفائدة.

زفر السيد «م» نفسا في ضيق وعاود الجلوس قائلاً: هذا صحيح.. وهو ما جعلنا نقوم بتسريب معلومات للحكومة الإيطالية عن اختطاف الخبير أنطوني ألبرتو بواسطة «الموساد» إلى «تل أبيب».. وعلى الفور أجرت الخارجية الإيطالية اتصالاتها مع «تل أبيب»، ولكنهم في «إسرائيل» ينكرون الأمر تماما ويتساءلون للإيطاليين في براءة الأطفال عمن يكون أنطوني ألبرتو الذي أتوقع أن يلاقي عذابا لا مثيل له في «تل أبيب» بسبب رفضه السابق التعاون مع «الموساد».. ولكن لا أظن أن «إيطاليا» ستسكت بسبب اختطاف خبيرها.. بل أتوقع أن تتدخل الحكومة الإيطالية للإفراج عن أنطوني ولو تطلب الأمر تصعيد المواجهة مع «إسرائيل».

ـ لقد تعقد الأمر يا سيدي تماما.

ـ هذا صحيح.. وإن كنت أعتقد أن الأمور ستسير لصالحنا في النهاية.

مرت لحظة صمت والسيد «م» يلتقط أنفاساً سريعة متعاقبة من غليونه، وتساءل ماجد في النهاية: هل هناك خطة خاصة لاستعادة الأوراق المسروقة من «الموساد» يا سيدي؟

ـ بالطبع.. لقد وضعنا خطة.. ولكنها خطرة جدا.

تعقَّد حاجبا ماجد في نظرة صارمة، وأرسلت عيناه نظرة قاسية وهو يقول:

ـ هل سأدخل «تل أبيب» هذه المرة؟

هز السيد «م» رأسه قائلاً: ليس أمامنا مفر هذه المرة يا رقم (٧٠٠).. ليست هناك وسيلة أخرى غير اقتحام عرين الأسد وانتزاع قطعة اللحم الشهية من بين أنيابه.. إنك لن تدخل «تل أبيب» وحدها.. بل ستقتحم وكر «الموساد» أيضاً!

وزم «م» شفتيه في غضب قاس مضيفاً: لقد أظهر أعداؤنا جرأة غير عادية حتى الآن..

وعلينا أن نرد بما هو أكثر جرأة وشجاعة.. وسنثبت لهم أننا لا نقل خيالا في العمل.. فقد نشط خيالي منذ الأمس نشاطاً محموما، ووضعت خطة رائعة لاستعادة تلك الوثائق..

وأشار بسبابته في وجه ماجد مضيفاً في صوت ناعم: وأنت الوحيد الذي يمكنه تحقيق هذه الخطة بالكفاءة المطلوبة.. لأنني أحتاج إلى كفاءة مائة في المائة.. فأقل هفوة يمكن أن تسقطك بين أيدي هؤلاء الأوغاد فتلاقي مصيراً لا يعلم به غير الله!

لم ينطق ماجد بشيء.. كانت مواجهة الأخطار هي متعته الدائمة.. واشتعلت عروقه تلك اللحظة بحماس لا مثيل له..

وهب واقفا في تساؤل: متى ساطير إلى «تل أبيب» يا سيدي؟

فظهرت الدهشة على وجه السيد «م» وغمغم في احتجاج: ومن قال إنك ستتجه إلى «تل أبيب».. إنني بذلك كأنني ألقي بك في وكر للذئاب الجائعة!

تطلع ماجد إلى رئيسه بدهشة دون أن يفهم ما يقصده «م»، وإن كان سيرسله إلى «تل أبيب» أم لا.

وضاقت عينا السيد «م» إلى أقصى حد وظهر فيهما مكر حاد، وأضاف في صوت عميق: إنك ستتجه إلى «أسطنبول».. فستبدأ عملك من هناك حيث يفضل كبار قادة «إسرائيل»

قضاء عطلاتهم في «تركيا» دائما تحت حراسة «الموساد» حتى يأمنوا شر المفاجآت من أعدائهم.

غمغم ماجد في دهشة: ولكن يا سيدي ما علاقة ذهابي إلى «تركيا» بمهمتنا.. كما أن الوقت ضيّق ولن يتسع لأي عمل في «تركيا»، والدخول في معركة جانبية هناك ضد «الموساد» و..

قاطعه السيد «م» في صوت ماكر: عزيزي رقم (٧٠٠).. لماذا لا تريد أن تترك لخيالك العنان وتجعله ينطلق في نشاط مثلما يفعل أولئك الأوغاد في «تل أبيب»؟

وأطلق السيد «م» ضحكة عالية مستمتعة.. ضحكة ثعلب قد أطلق لخياله العنان!

***

الكولونيل.. والضابطة

تمدد الكولونيل «موسى كنعان» فوق كرسي عريض أمام فندق «إيتاب» «أسطنبول» وهو يلقي نظرة متماسكة إلى الشاطئ العريض أمامه والبحر العريض المتسع بامتداد الأفق، تقطعه سفينة أو اثنتان في هدوء وتكاسل على البعد.. على حين كان الشاطئ القريب يعج بالحسناوات الفاتنات في ملابس البحر، وقد استلقين فوق الرمال الناعمة في استسلام لأشعة الشمس الساطعة لكي تحيل لون بشرتهن الأبيض إلى لون برونزي جميل. وتنهد الكولونيل في ارتياح وإحساس عميق بالسرور يغمره.. وغمغم لنفسه وهو يتأمل حسناء مثيرة تسير فوق الشاطئ على مسافة قريبة: إن العمل في «الموساد» لهو متعة حقا.

وخلع الكولونيل نظارته السوداء عن عينيه ليتيح لنفسه فرصة أفضل للرؤية.. وتابع الحسناء بعينيه حتى

ألقت بنفسها في الماء وسبحت بعيدا فتنهد في ارتياح وطمأنينة!

وقد كان الكولونيل على حق فيما ذكره عن مميزات العمل في «الموساد»..

فإلى جانب المرتب الضخم والسيارة الخاصة والإجازة المدفوعة الأجر لأي مكان في العالم، كان هناك أيضاً حماية خاصة متمثلة في هذين الحارسين الضخمين اللذين جلسا على مسافة قريبة ككلبي صيد مستعدين لحماية الكولونيل في أي لحظة والانقضاض على أي عدو محتمل، وأيديهما أقرب ما تكون إلى مسدسين من نوع «بيرتيا» الضخم المعدل ذي الإثني عشرة طلقة والتي لكل واحدة منها القدرة على أن تخترق جمجمة أي إنسان لتستقر في جدار من الأسمنت خلفه بسمك عدة سنتيمترات.. وهو ما جعل الكولونيل يشعر بأهميته البالغة!

لم تكن هذه الميزات هي الوحيدة بالطبع، فهو في أثناء عمله بجامعة القدس كأستاذ لقسم الشفرات السرية والخطوط، كان يتقاضى مرتبا ضخما ويتمتع بمكانة علمية فائقة.. ولكن

كيف كان له أن يهرب من حصار زوجته إبنة مدير الجامعة التي لولاها لظل مجرد أستاذ خامل فيها.. والآن أتاحت له «الموساد» أن ينطلق منها في سهولة منعاً لثرثرتها.. ولكي تصبح خدماته موجهة فقط من أجل «الموساد».. أعظم جهاز مخابرات في العالم كما كان يتباهى أمامه دائما الجنرال «شامير موداعي».. رجل المخابرات الأول في «إسرائيل» والذي منحه رتبة كولونيل مرة واحدة في سابقة لم تتكرر.. ليشعر موسى أنه شخص محظوظ بحق.

وعندما أقبلت صوفي بكأس «براندي» من بار الفندق، وتحركت في خطوات ممشوقة وقد اكتسب جسدها اللون البرونزي لكثرة استلقائها على الشاطئ تحت أشعة الشمس.. بدت فاتنة مثيرة.. وأضفت عليها نظارتها السوداء غموضاً وإثارة أكثر.. واستقرت أخيراً بجوار الكولونيل موسى ومدت إليه كأسه من «البراندي»، فغمغم وهو يتأملها: إنك تزدادين فتنة كل يوم يا صوفي.. وتجعلينني أشعر بمدى مزايا جيش الدفاع وهي تمنحنا مثل هؤلاء الجميلات ليكنَّ في خدمتنا.

فرمته صوفي بنظرة مثيرة أودعتها كل فتنتها وخبرتها وهي تقول: إنني في خدمتك يا سيدي الكولونيل.. وخدمة جيش الدفاع الإسرائيلي ومستعدة للقيام بأي خدمة لك يا سيدي.

ونطقت العبارة الأخيرة بلهجة ناعمة توحى بالكثير.

فتذوق الكولونيل كأس «البراندي» متلذذاً وهو يقول: إنني مقدر خدماتك يا صوفي.. ولهذا فبعد عودتنا إلى «تل أبيب» مباشرة سأرفع تقريرا للجنرال شامير بنفسه أخبره فيه كيف كنت أفضل رفيق لي في هذه الإجازة الرائعة..

وحدق في عينيها السوداوين الكحيلتين ثم أضاف في لهجة خاصة: وأطلب ترقيتك.

أطلقت صوفي ضحكة عالية لعوبا لا تتناسب مع كونها ملازم أول في جيش الدفاع وقالت بلهجة ماكرة: لست أظن أن الجنرال شامير سيوافق على طلبك يا سيدي.

فسألها بدهشة: ولماذا؟

أجابته في ضحكة أكبر: لأنه كان يرغب في أن أصحبه في رحلته إلى جزر «الكناري».. ولكنني أفضل دائما من هم أصغر سناً.. وأكثر حيوية!

غمغم الكولونيل موسى وصوفي ترميه بنظرة مثيرة: إنك رائعة.. أروع ضابطة مجندة في جيش الدفاع الإسرائيلي.. بل في كل جيوش العالم.

وامتدت يداه في لهفة نحو ذراعي صوفي، ولكنها غادرت مكانها ضاحكة وهي تقول:

ـ سيدي الكولونيل.. لا يصح أن تفعل ذلك أمام حارسيك.

هتف الكولونيل في غضب وهو يعيد نظارته السوداء فوق عينيه لتخفيا مشاعره الحقيقية:

ـ سحقاً لهذين الحارسين.. ليذهبا إلى الجحيم، فقد مللت مراقبتهما ليل نهار.

أجابته في خبث: ولكن يا سيدي إنهما سيرفعان تقريراً إلى الجنرال شامير.. وقد تتوقف ترقيتك بسبب ذلك.

فحدج الكولونيل الحارسين بغضب، واستدار إلى صوفي قائلاً: وما العمل الآن.. هل نعود إلى حجرتنا؟

أجابته ضاحكة وهي تغمز له بعينيها: ولماذا لا نهرب من نظراتهما في البحر.. وهناك يمكننا أن نلهو كما نشاء؟

هب الكولونيل واقفاً وقد اتسعت عيناه من الإثارة وهتف في سرور: يا لها من فكرة رائعة.

واستدار إلى الحارسين قائلاً: سأذهب لأسبح قليلا في الماء.. فابقيا مكانكما ولا تتبعاني.

غمغم أحد الحارسين في قلق: ولكن يا سيدي قد تتعرض هناك لأي خطر..

صاح الكولونيل مقاطعاً: تأكدا أنني لن أتعرض لأي خطر.. فقد مللت من هذه الرقابة السخيفة كأني طفل صغير.

وأضاف ساخراً: ولا تخشيا كثيرا على حياتي.. فلست بالشخص المهم جداً ليفكر عدو ما في اغتيالي.

واندفع إلى المياه خلف صوفي.. كانت قد سبقته إلى مسافة داخل البحر وهي تضرب الماء في قوة.. فراقبها الكولونيل في بعض التحسر مغمغماً: إنها سباحة ماهرة.. وليست لي مهارتها في السباحة.. وستكون مهمة اللحاق بها شاقة حقا.

ووقع بصره على الزورق البخاري الخاص بحارسيه، فتهللت أساريره وقفز إليه وأدار محركه، ثم انطلق به يشق قلب الماء..

ولكن عندما وصل إلى مكان صوفي لم يعثر عليها.. وبعد لحظات شاهدها وهي تغادر المياه ضاحكة ملوّحة له بيدها ونظرة خبيثة تطل من عينيها. فغمغم الكولونيل في سخط:

ـ هذه الماكرة اللعينة.. إنها تلاعبني منذ وصلنا هذا الشاطئ وتتحايل للهرب مني.. وتظن أن هذا يدفعني للزواج منها.

وبصق الماء في احتقار مضيفاً: ولكن أي غبي يتزوج فتاة تعمل بجيش الدفاع.. ورافقت عشرات الضباط في رحلات إلى كل مكان؟

وتمدد في الزورق هامساً لنفسه: لسوف أعرف كيف أثبت لها أنه لا يعنيني في شيء وجودها بجواري، وسأعاملها كأنها غير موجودة على الإطلاق!

وأغمض عينيه والزورق يتأرجح به فوق سطح الماء، وقد ابتعد عن الشاطئ الذي بدا له على البعد كشريط غير مميز الملامح.. وغمره إحساس بالضيق وهو يرقد وحيداً داخل الزورق، ففكر في أن تلك النزهة كانت ستصبح رائعة لو أن صوفي شاركته فيها!

وغمغم لنفسه: سوف أتزوجها وليكن ما يكون.. فلست أنا من يغير أخلاق ضابطات جيش الدفاع.. ولسوف أصارحها بذلك عند وصولي للشاطئ وأطلب يدها ونتزوج فوراً.

وتطلع حوله، كان سطح الماء خالياً من البشر أو الزوارق والسفن، فأحس الكولونيل موسى بالأمان.. وبعثت فيه أشعة الشمس إحساسا بالدفء والاسترخاء اللذيذ.. فاستجاب الكولونيل لها وشعر بالنعاس يغزو جفنيه رويداً رويداً.. ونظارته السوداء تحجب أشعة الشمس عن عينيه.

ولكنه أفاق فجأة على الصوت الذي انبعث من جانب الزورق، وشخص ما يسأله باللغة العبرية: هل لديك عود ثقاب لإشعال سيجارتي يا سيدي؟

خلع الكولونيل نظارته وقد تنبه تماما، وألقى نظرة إلى يساره وهو يظن أنه يحلم، وأن من المستحيل حقا أن يخرج له شخص ما من قلب الماء ليطلب ثقابا لإشعال سيجارته!

ولكن كان هذا هو ما حدث فعلا.. ووقعت عيناه على شخص ما يطل برأسه من حافة الزورق وفي يده سيجارة لم تشتعل بعد، وقد انتظر إشعالها في أدب بالغ!

وما كاد الكولونيل يشاهد ملامح ذلك الشخص حتى شهق من المفاجأة المذهلة..

كان ذلك الشخص يشبهه تماما بطريقة مذهلة.. كان له نفس الجبهة العريضة والفك القوى والأنف الشامخ المستقيم.. وحتى لون العينين واتساعهما ولون الشعر بخطوطه الرمادية حول فوديه ومقدمة رأسه.. بل كانت له أيضاً نفس الشامة فوق كتفه الأيسر.. وحتى أثر ذلك الجرح القديم في عنقه!

وشهق الكولونيل وقد طار النعاس من عينيه تماماً، وغمغم في ذهول:

- أنت.. مستحيل أن تكون أنت؟!

أجابه صاحب الملامح الشبيهة: وما المانع في ذلك.. ولو أنصتَّ لي جيداً فستتأكد أننا نتطابق حتى في لهجة الكلام!

وكان ذلك صحيحاً.. وقد بدا كأن الكولونيل يشاهد نسخة مكررة منه أو توأما له يشبهه بشكل غريب لا يخطر على بال.

وأحس الكولونيل بالخطر حتى من قبل أن يستوعب عقله تماما لماذا يمكن أن يكون مثل هذا الشخص الذي يشبهه تماما والذي خرج له من قلب البحر فجأة خطرا عليه.. فامتدت يداه إلى بندقية سريعة الطلقات كانت مخفاة في مهارة إلى جانب الزورق، ولكن وقبل أن يتاح له استعمالها أو حتى الضغط فوق زنادها، امتدت قبضة ذلك الشبيه بلكمة ساحقة إلى خلف الكولونيل وأطاحت برأسه للخلف فارتطمت بحاجز الزورق في عنف، وسقطت بندقيته في نهاية الزورق.

وقفز الشبيه إلى داخل الزورق والتقط البندقية من مكانها وهو يقول آسفاً:

ـ لقد ساءت أخلاق بعض أساتذة الجامعات هذه الأيام.. فصاروا لا يتنزهون في البحر إلا وهم حاملون البنادق.. ليطلقوها على رأس من يطلب منهم عود ثقاب!

تألم الكولونيل بشدة من عنف اللكمة وهو يحدق في شبيهه ذاهلا دون أن يجد ما ينطق به.. كان ثمة وجه اختلاف قد ظهر بين الاثنين أخيراً، وهو ذلك الخيط الرفيع من الدماء الذي سال من فك الكولونيل الذي تنبه في ذهول أن شبيهه

ليست له نفس البنية والملامح فقط، وحتى لون الشعر الغزير في ساقيه، بل كان يرتدي أيضاً نفس النوع واللون من ملابس البحر!

وغمغم الكولونيل وهو يستعيد وعيه المشوش: من أنت.. وماذا تريد مني؟

هز الشبيه كتفيه قائلاً: للأسف فإنه ليس لدي الوقت الكافي للإجابة.. ويمكنني أن أرسلها إليك بالبريد يوماً ما.. والآن استعد يا عزيزي لرحلة من نوع آخر. وما كاد الشبيه ينهي عبارته حتى ظهرت من الخلف سيارة برمائية صغيرة تتسع لشخصين، يقودها سائق وقد خلا المكان الذي بجواره فاتسعت عينا الكولونيل في دهشة عظيمة متسائلاً: ماذا ستفعلان بي؟

فأجابه شبيهه في اعتذار مؤدب: يجب ألا تشغل نفسك بمثل تلك الأسئلة الفضولية، فتعكر صفو إجازتك الرائعة يا عزيزي.

غمغم الكولونيل محتجاً: ولكن..

فقاطعه شبيهه قائلا: حسناً.. أنت تضطرني لإقناعك بالصمت بطريقة عنيفة بعض الشيء!

وهوت قبضة الشبيه فوق رأس الكولونيل، فترنح مكانه لحظة ثم ارتمى في قاع الزورق دون حركة، وفي الحال قفز سائق السيارة البرمائية من مكانه إلى داخل الزورق وفي يده حقنة، غرز سنّها في ذراع الكولونيل وهو يقول: إن هذه الحقنة ستجعل هذا الوغد يظل نائما حتى المساء.. وعندما يفيق منها ستكون رحلته الإجبارية إلى القاهرة قد انتهت يا رقم (٧٠٠).

فارتسمت ابتسامة قاسية على وجه ماجد في ملامح الكولونيل وقال: رائع.. ولكن تذكروا أن الكولونيل سيكون في ضيافتنا.. فعاملوه بما يليق بوغد من أوغاد «الموساد»، لكي يدرك أن العمل معهم ليس كامل المزايا تماما!

وعاون ماجد قائد السيارة البرمائية في حمل الكولونيل الغائب عن الوعي إلى المكان الخالي في السيارة.. وبعد لحظات كانت تغوص وتختفي براكبيها عن سطح الماء.

وتأمل ماجد سطح البحر حوله في صمت وقد ارتسمت نظرة قاسية في عينيه.. فقد سارت خطة السيد «م» بنجاح

حتى تلك اللحظة.. وهو كان في حاجة إلى خيال عظيم لكي يسير باقي الخطة بنجاح..

كان ماجد لحسن الحظ له نفس قوام الكولونيل موسى كنعان.. وببعض الشعر الصناعي فوق ساقيه بدا غزيرا مثله.. وكذلك تم اصطناع جرح رقبته وشامة سوداء كبيرة.. أما الجانب الأخطر فكان في ملامح الوجه.. ولكن قناعاً بارعاً من مادة مطاطية لدنة أمكن تجهيزه بدقة في معامل المخابرات أدى المهمة المطلوبة.. وبعد صباغة جزء من شعر ماجد باللون الرمادي وقصه بنفس الطريقة.. صار نسخة مكررة من الكولونيل.. وخلال يوم كامل راح ماجد يستمع إلى أحاديث مسجلة للكولونيل فأمكنه تقليد لهجته في الحديث.. وقد راح السيد «م» بعدها يضحك طويلا وهو يتخيل مشهد الكولونيل موسى وهو يشاهد ذلك الشبيه يخرج له من قلب البحر!

كان السيد «م» رجلا ذا خيال خصب حقاً.. وفي عمله كان هناك متسع لذلك الخيال دائما بالرغم من خطورته.

وزادت ابتسامة ماجد القاسية اتساعا.. وهو يقود زورق الكولونيل عائدا به إلى الشاطئ.. كان الجزء الأسهل من مهمته

قد تم.. وكان هناك الجزء الأصعب الذي ينتظره هناك.. في «تل أبيب»..

وما أن خطا ماجد إلى الشاطئ وقد ثبت نظارة الكولونيل السوداء فوق عينيه حتى اندفعت إليه صوفي وفوق وجهها علامات الاهتمام الشديد، وهتفت به: لقد تلقيت رسالة عاجلة من «تل أبيب».. إنهم يطلبون عودتنا فوراً.

ولم يكن ماجد في حاجة لمن يخبره عن السبب في ذلك الاستدعاء العاجل، كان يعرف أنهم هناك بعد أن يفشلوا في حل شفرة الأوراق التي حصلوا عليها من الحقيبة الديبلوماسية المسروقة.. فيضطرون للاستعانة بأمهر خبرائهم في فك الشفرة.. الكولونيل موسى كنعان!

وقد توقع السيد «م» ذلك واستعد له مبكرا.. بقليل من الخيال.

وواصلت صوفي: هناك طائرة ستغادر «أسطنبول» إلى «تل أبيب» مباشرة بعد ساعة.. وقد حجزوا لنا أربعة مقاعد فيها.

فحدجها ماجد بنظرة قصيرة لا تشي بأي انفعال ثم قال: سأبدل ملابسي وأكون جاهزا خلال دقائق.. فاستعدي أيضاً.

واتجه إلى حجرة الكولونيل في الفندق القريب.. فراقبته صوفي في بعض الدهشة.. كان الكولونيل يبدو حتى وقت قريب راغباً فيها بشدّة ويبذل المستحيل لينال رضاها.. فما الذي غيره لكي يعاملها بكل هذا الجفاء وقلة الاهتمام؟

وتساءلت في ندم إن كانت قد تسببت بتحايلها للهروب منه دائماً في أن ينسى أمرها تماماً؟

وظهر بعد دقائق في ملابس الكولونيل.. وكانت هناك سيارة يقودها حارساه الخاصان، فأخذ مكانه فيها في صمت وبجواره صوفي..

واتجهت السيارة مسرعة إلى المطار..

وقد كان ماجد شريف يعرف أنه يخطو بإرادته إلى مصير مجهول..

يخطو إلى قلب الجحيم ذاته!

***

قلب الجحيم

يقع مبنى «الموساد» الرئيسي في شارع «الملك سول» بـ «تل أبيب».. ويبدو المبنى من الخارج بريء المظهر، يحتوي على عدد من الكافيتريات والمحلات التجارية التي توحى بأنه مبنى تجاري عادي.. أما القسم السري فيقع في الجزء الخلفي من المبنى، حيث يحيط به ستار حديدي يستحيل اختراقه، أما أبوابه الخارجية فتكاد تكون حصينة على الاختراق.

وكانت ثمة عيون سرية تراقب المدخل ليل نهار.. وحتى الشارع ذاته كانت هناك نقاط تراقبه تعمل ليل نهار لرصد الداخلين والخارجين منه..

وعندما توقفت السيارة «تويوتا» زرقاء أمام باب المبنى هرع إليها حارسان في ملابس مدنية، وغادر ماجد السيارة وألقى نظرة قصيرة على المبنى.. كانت الخرائط والصور التي

راجعها قبل يوم واحد في «القاهرة» قد شرحت له المكان تفصيليا..

وحتى حجرة الكولونيل كان يعرف تفاصيلها عن ظهر قلب..

كان عليه أن يتقن أداء دور الكولونيل، وكان يدرك أن أقل خطأ يعني أنه الخطأ الأخير..

وتقدمت صوفي ماجد قائلة: تفضل يا سيدي.

واستقلا مصعداً داخلياً حملهما إلى ممر طويل.. وفي النهاية كان ثمة مصعد آخر سري.. هبط بهما هذه المرة إلى قلب الأرض.. المكان المفضل لقيادات «الموساد».

وتوقف المصعد أمام باب انفتح أتوماتيكيا كاشفاً عن حجرة متسعة تحوي عدداً كبيرا من الخرائط والشاشات التليفزيونية المتصلة بالأقمار الصناعية لتنقل كل ما يدور في بقاع العالم إلى شاغلي الحجرة.. الجنرال «شامير موداعي».. رجل «الموساد» الدموي وأنشط ضباطها.

وتحرك مقعد دائري كاشفاً عمن يجلس فوقه . . وعلى الفور انتفضت صوفي وهي تؤدي التحية العسكرية هاتفة في صوت حاد: مرحباً يا سيدي الجنرال.

تقدم موسى باسماً وهو يمد يده مصافحاً الجنرال هاتفا: إنني سعيد لرؤيتك يا سيدي الجنرال.

فحدق فيه الجنرال شامير موداعي بنظرة عميقة تتفحصه، ثم غمغم في عدم ارتياح:

- أنت تنسى دائماً أن تؤدي التحية العسكرية أيها الكولونيل.

غمغم ماجد وهو يؤدي التحية العسكرية: معذرة يا سيدي.. فإنني كثيرا ما أنسى أنني تحولت إلى رجل عسكري.

أشار الجنرال بسبابته في وجه ماجد قائلاً بامتعاض: هذا خطر.. خطر جداً أن ينسى العسكري رتبته.

وأشار الجنرال لماجد قائلا: تفضل بالجلوس.

ثم أشار بيده إلى صوفي مضيفاً: وأنت أيها الملازم

تستطيعين الانصراف.. وعليك بالاستعداد في الأسبوع القادم لرحلة ترفيهية إلى «ميامي» مع أحد الضباط الكبار.

ظهر بعض الضيق على وجه صوفي ولكنها لم تنطق، وأدت التحية العسكرية وهي تقول:

- سأستعد تماما يا سيدي.

وغادرت المكان في صمت.. ولاحظ الجنرال علامات الضيق والامتعاض التي تصنعها ماجد على وجهه، فابتسم ابتسامة خبيثة متسائلاً: لعلك قد قضيت وقتاً ممتعاً مع هذه الضابطة.. فكل من اصطحبوها معهم من ضباطنا أكدوا أنها أكثر من رائعة.

غمغم ماجد في تجهم: إنها رائعة بالفعل يا سيدي!

كان يدرك أن عليه أن يؤدي دور العاشق الغيور لتلك الضابطة.. وأن يكون هو الكولونيل موسى تماما، وألا يقع في أي خطأ غير محسوب.

وتساءل: لماذا قطعتم إجازتي السنوية واستدعيتموني سريعاً يا سيدي.. هل هناك مهمة عاجلة؟

وضع الجنرال قدميه فوق طرف مكتبه بحيث صار نعل حذائه في وجه ماجد وأجاب وهو يخرج من ثلاجة صغيرة بجواره زجاجة «براندي»:

- هذا صحيح تماما يا موسى.. فقد حاولنا أن نحلها بأنفسنا دون أن نعكر صفو راحتك ولكننا فشلنا.. ولذلك لم يكن هناك مفر من استدعائك.

- وهل «الشفرة» معقدة إلى هذا الحد؟

صب الجنرال كأسا من «البراندي» تجرعها مرة واحدة وقال: إنها اكثر من «شفرة» متداخلة معا.. وهي تبدو كالطلاسم والألغاز.. وحتى العقول الإلكترونية فشلت في كل محاولاتها لحلها.

ضاقت عينا ماجد وهو يتساءل بكلمات بطيئة: هل هي.. «شفرة» مصرية؟

تحولت عينا الجنرال إلى لون الدماء وقال وهو ينهض من مقعده: بالطبع.. والأمر عاجل جداً وإلا ما استدعيتك بمثل هذه السرعة.

وضغط على زر أحمر في ركن مكتبه فانكشف جزء من الحائط وتحرك إلى داخله، فظهر خلفه حائط آخر تبرز من منتصفه خزانة سرية يحيطها سياج من أشعة الليزر يستحيل اختراقه إلا بـ « شفرة » خاصة، ووضع الجنرال كفه على جزء خاص من الجدار أمام لوحة إليكترونية، وعندما تم التأكد من شخصية الجنرال انزاح شعاع الليزر الدائري حول الخزانة، فأدار الجنرال قرصها السري.. ومد يده يلتقط بعضاً من الأوراق والملفات من داخلها..

واستدار الجنرال وهو يضع ملفات أمام ماجد قائلا: هذه هي الأوراق التي نريد حل « شفرتها ».. إنها تتعلق ببعض أبحاث تطوير الغواصات التقليدية وتحويلها إلى الطاقة النووية بتكلفة بسيطة.. وحكومتنا في عجلة لفك « شفرة » هذه الأبحاث للاستفادة منها، فهو ما سيوفر علينا مليارات الجنيهات في شراء غواصات نووية.

رمق ماجد الجنرال وقال في لهجة متهكمة: إنكم تصيدون في الماء العكر دائما يا سيدي.. فإن المصريين يشقون للحصول

على هذه الأوراق ثم تحصلون أنتم عليها بكل بساطة لتستفيدوا منها.

أطلق الجنرال ضحكة مستمتعة وقال: لقد رفض هذا المهندس الإيطالي التعامل معنا وفضل المصريين علينا.. ومن ثم لم يكن أمامنا غير اللعب في الخفاء.. والصيد في الماء العكر.. وقد خططت كل التفاصيل بنفسي.

امتدت يد ماجد إلى الملفات قائلا: لقد صدتم حوتا هذه المرة.

ولكن أصابع الجنرال قبضت ذراع ماجد، وترامق الاثنان لحظة في نظرة عميقة، قبل أن يقول الجنرال في بطء: إنك لن تحصل من الحوت إلا على جزء من ذيله.

والتقط بضع أوراق قليلة من الملفات أمامه مدها إلى ماجد مواصلاً: هل تكفي هذه الأوراق لتجري عليها أبحاث فك «الشفرة»؟

تجهم وجه ماجد وتساءل في غضب: هل تشكون فيَّ يا سيدي، ولهذا لا تمنحونني الثقة كاملة؟

أجابه الجنرال ساخراً وهو يتجرع كأساً أخرى مضاعفة: في عملنا لا مجال للثقة..

أو العواطف أبداً.. ونحن نشك حتى في رئيس حكومة هذه البلاد.. ومن ثم فلا نمنحه إلا أقل الفتات.. وأنت لا تنتظر أن نعاملك أفضل من رئيس الحكومة.

التقط ماجد بعض الأوراق القليلة وهو يقول: لقد فهمت يا سيدي.. فإنني دائما اكتشف الجديد مما أتعلمه معكم.

دق الجنرال حافة مكتبه بكأسه الفارغة في رنين عال وهتف: هذا رائع.. فأنا أرحب دائما بمن لديه استعداد للتعلم.. لأن من لا يتعلمون ينتهي بهم الأمر دائما أن يلاقوا حتفهم برصاصة في رؤوسهم..

وحدق في ماجد بعينين قاسيتين مواصلا: أما من يتعلمون فإنهم عادة ما يكونون أسبق في إطلاق تلك الرصاصة القاتلة.

ومد كأساً من «البراندي» إلى ماجد قائلا: لقد أخذني الحماس فنسيت أن تشاركني شرابي.

كان ماجد يعرف أن الكولونيل مغرم باحتساء «البراندي» حتى أثناء ساعات النهار، ولكنه رفض الكأس الممدودة إليه وهو يقول: ليست لي رغبة الآن في الخمر يا سيدي..

فإنني أحاول الإقلال منها حفاظاً على صحتي.

فحدق فيه الجنرال في سخرية قائلاً: صحتك.. إنك قد تحافظ عليها سنوات طويلة، ثم يأتي شخص ما فيفرغ رصاصات في رأسك فتذهب صحتك هباء إلى الجحيم!

وانطلق الجنرال يضحك بشدة كأنما أعجبته النكتة التي أطلقها.. ثم تجرع كأسه الثالثة، واستدار ليعيد الملفات والأوراق إلى الخزانة ويعيد إغلاقها وتشغيل دائرة الليزر.. وأشعل سيجاراً وهو يجلس فوق مقعده، وأطلق دخانه وهو يقول: هيا يا عزيزي موسى.. أرني براعتك في حل طلاسم هذه «الشفرة».. وأعدك أن أمنحك مكافأة ضخمة إن تمكنت من ذلك سريعاً.

وأضاف في خبث: بالإضافة إلى ضابطة أخرى أكثر جمالا وفتنة من صوفي.. لتكون سكرتيرتك الخاصة التي لا يشاركك

فيها أحد.. فلا تغضب كل هذا الغضب لأن ضابطاً آخر سيلازمك في رحلة ترفيهية.

قطب ماجد حاجبيه قائلاً في لهجة باردة: سوف أبذل كل جهدي يا سيدي.

تألقت عينا الجنرال ببريق حاد وقال: رائع.. إننا بذلك نضمن أننا قد حصلنا على الوليمة كاملة.. الأبحاث، وكذلك هذا الخبير الوغد.. فسنعرف كيف نجبره على التعاون معنا مهما كلفنا الأمر.. ولو اضطررنا لإسقاطه في بحر مليء بأسماك القرش التي ستلتهم أجزاءه واحداً بعد الآخر لنقنعه أننا جادون ولا نهزل.. وهم هناك في سجن «الموساد» بضواحي «حيفا» سيعرفون كيف يتعاملون مع هذا الغبي بالطريقة المناسبة.

كان على ماجد أن يحاول استدراج الجنرال بما لديه من معلومات، فقال ممتدحاً:

- أنا واثق أنكم ستتمكنون من إقناع هذا الإيطالي الأحمق بالتعاون معكم يا سيدي.. بالطريقة المعتادة فقد سمعت عنها الكثير، وعن مفعولها الذي لا يخيب أبداً.

وضاقت عيناه وهو يتساءل: ولكن بماذا ستجيبون على أسئلة وفد الخارجية الإيطالية الذين سيصلون إلى «تل أبيب» للسؤال عن مصير خبيرهم.. ولا أظن يا سيدي أن مجرد النفي سيكفي لإقناع رجال المخابرات الذين سيرافقون وفد الخارجية الإيطالية.. فهم لا ينقصهم الذكاء أيضاً.

حدق الجنرال في ماجد لحظة، ثم أطلق ضحكة عالية حتى طفرت الدموع من عينيه.. وأشار بكأسه في وجه ماجد قائلا: إنه سؤال رائع.. وقد تلقيت نفس السؤال من وزير الخارجية، فطلبت منه أن يعتمد عليَّ تماما في هذا الأمر.. فلا يوجد شيء يستعصى عليَّ أبداً.

وأطبق بأسنانه فوق سيجاره بعنف مواصلا: أنا أعرف كيف أقنع هؤلاء الأغبياء بأن هذا الخبير لم يطأ بلادنا.. وأننا بريئون من دمه، براءة الذئب من دم ابن يعقوب!

وأطلق الجنرال ضحكة أكبر وهو يتجرع كأس «براندي» ممتلئة وقد أتى على نصف الزجاجة.

حدَّق ماجد في الجنرال صامتا مقطِّبا، وهو يتساءل عن الخدعة التي أعدها ذلك الداهية لخديعة الإيطاليين، ونهض

قائلا: سوف أذهب لعملي يا سيدي.. فلا وقت لإضاعته.

وغادر المكتب.. واستقل المصعد السري هابطاً لأسفل.. وبعد لحظات كان يغادر المبنى بأكلمه، وعندما اتجه إلى سيارته وجد صوفي في انتظاره في داخلها.. فأخذ ماجد مكانه إلى عجلة القيادة وهو يقول لها: لقد ظننت أنك ستذهبين فورا إلى ذلك الضابط الكبير المتجه إلى «ميامي».. لتقدمي خدماتك إليه وتتعارفا سريعا دون تضييع للوقت.

اربدً وجه صوفي بغضب شديد والسيارة تشق طريقها عبر شارع «هاياكون» في «تل أبيب»، وبصقت من النافذة صارخة: ماذا يظنني هذا الجنرال الوغد.. هل يعتقد أنني عاهرة.

أجابها ماجد ساخراً: لست وحدك من تفعلين ذلك.. إن كل ضابطات جيش الدفاع في هذه البلاد يقمن بنفس النوع من الخدمات لرؤسائهن.. وترقياتكن تتضاعف بمدى ما تبذله كل منكن من مجهود، فلماذا الشكوى؟

غمغمت صوفي في ألم: لماذا صرت تعاملني بمثل هذه الخشونة وذلك الجفاء، وكأنك لم تعد تهتم بأمري.. لقد مللت من هذا العمل.. إنني مستعدة لتقديم استقالتي في الحال.

وحدقت في ماجد بعينين جريحتين مواصلة: ثم نتزوج بعدها.. غداً أو بعد غد فماذا تقول؟

وكانت تلك آخر مفاجأة يتوقعها ماجد.. وكان حدوثها كفيلا بإفساد كل خططه.. فأوقف ماجد سيارته على ناصية شارع «جيفي رول» حيث يقع مسكن الكولونيل موسى، وغمغم قائلا لصوفي بوجه مقطب: لا داعي للتسرع في هذا الأمر.. وسأحاول إقناع الجنرال بأن تعملي معي فقط.. وبعدها يمكن أن نتزوج.. والآن اذهبي إلى بيتك فلدي عمل مهم.. ولا أرغب في أي تعطيل.

فألقت عليه صوفي نظرة غاضبة، ثم غادرت السيارة وهي تصرخ فيه قائلة: أيها الوغد.. إنك لا تختلف كثيراً عن الجنرال القذر!

واندفعت مهرولة وهي تلقي سباباً عاليا..

أطلق الجنرال شامير موداعي ضحكة عالية وهو جالس في مكتبه يعب من زجاجة «البراندي»، ويستمع إلى الحوار الدائر بين ماجد وصوفي عبر «الميكرفون» السري المخبأ في سيارة ماجد..

وأغلق «الميكرفون» وهو يطلق دخان سيجار فاخر من فمه وقد غرق في تفكير عميق.. وتجلى في عينيه شك عميق.

وغمغم لنفسه في صوت قاسٍ: لقد أخطأ هذا الرجل.. أنا أشعر بذلك وأكاد أقسم عليه، فحاستي في هذا الأمر يستحيل أن تخطئ أبداً.

وسحق سيجاره تحت قدميه مغمغماً في صوت مخيف: إن المفترض أن الكولونيل موسى لا يعرف شيئاً عن ذلك الوغد الإيطالي الذي سيصل إلى «تل أبيب» بشأن «أنطوني ألبرتو».. ومعرفته بأمره تجعلني أرتاب في الأمر كثيرا.. فإن الكولونيل ليس بالشخص الحاد الذكاء الذي يستنتج شيئا كهذا.. ولكن يجب أن أتأكد أولاً.. بنصب شرك رائع وأتلذذ، وذلك الأحمق يدخله بقدميه دون أن يدري وليس أحد مثلي يجيد نصب الشراك في «إسرائيل» كلها.

وأطلق ضحكة عالية متوحشة..

ضحكة سفاح مجنون.

***

ذئب.. في الأسر

عندما بدأ الكولونيل «موسى كنعان» يستعيد وعيه كانت الساعة قد تجاوزت الحادية عشرة مساء في القاهرة..

وكان أول ما وقع بصره عليه داخل الغرفة البيضاء التي تمدد على فراش في منتصفها، هو ذلك الوجه الممتلئ وصاحبه ذو النظارة السوداء، وقد راح يراقبه دون ملل، وهو يطلق أنفاس غليونه الذي عبق الحجرة برائحته..

واستردت ذاكرة الكولونيل آخر ما جرى له، وذلك الرجل الذي يشبهه تماما والضربة التي تلقاها فوق رأسه بعنف، ولم يكن في حاجة إلى ذكاء شديد ليدرك أنه سقط في يد المخابرات المصرية، فصاح بأعلى صوته: أيها الشياطين.. ما الذي فعلتموه بي؟

وهنا انفرجت أسارير السيد «م» وأزاح نظارته السوداء عن عنينه قائلا: مرحى.. لقد ظننت أنك ستقضى الليل كله غارقا في نومك مثل خنزير أنهكته رحلة البحث عن طعام وسط مقلب للقمامة.

وحاول الكولونيل النهوض فآلمته يداه وقدماه المقيدتان إلى فراشه بقيود حديدية، فراح يسب ويلعن كالمجنون.

ورمقه السيد «م» بنظرة هادئه قبل أن يقول له: لا فائدة من الصياح والصراخ فإن الحجرات هنا مصممة بحيث تمتص أدنى صوت.. ولو ظللت تصرخ طوال عمرك فلن يسمعك حتى ذلك الكلب الراقد أمام مدخل المبنى في انتظار من يلقي إليه بقطعة عظم. صرخ الكولونيل: ماذا تريدون مني.. أنا لم أفعل شيئا لكم.

أطلق السيد «م» سحابة دخان تبغ من فمه وقال: نحن لا نريد منك بالذات.. فقط أن ترقد هادئاً دون إثارة أية ضجة.. وإلا اضطررنا لأن نأتي بشخص ما يدق فوق رأسك ليجبرك على التحلي بفضيلة الصمت.

ارتعدت شفتا الكولونيل، وبدا عليه غضب شديد وخوف قاس في الوقت ذاته، وقال في صوت متحشرج: لقد بدّلتموني بشخص يشبهني كل الشبه ليحل محلي.. فلماذا؟.. ماذا تهدفون من ذلك ؟

أجابه «م» باسماً: إنني أترك ذلك لخيالك. فهيا أمتعني بخيالك الخصب وأثبت لنا أنك تستحق أن تعمل في «الموساد» حقا.

زمجر الكولونيل في غضب: إنكم ترغبون في أن يعود هذا الشخص إلى «تل أبيب» ويحل محلي.. أليس كذلك.. فهل تخططون لاغتيال الجنرال «شامير موداعي» على يد هذا الشبيه لي؟

مط «م» شفتيه في استياء قائلاً: إن خيالك مريض يا عزيزي.. فلو كنا نرغب في اغتيال شخص في بلادكم مهما كان ما تكبدنا كل هذه المشاق لأجل ذلك.. يكفي أن نأمر أحد رجالنا في «تل أبيب» بأن يزرع قنبلة هنا أو هناك، أو يسدد رصاصة من بندقية بعيدة المدى.. ولكننا لا نلجأ إلى

هذه الوسائل القذرة لأننا لا نلجأ للطعن في الظهر أبداً، من ثم ترى أن خيالك قد خانك هذه المرة.

تصاعدت دقات قلب الكولونيل عنيفة وهو يقول: إذن ماذا تريدون.. هل ترغبون في كشف سر «الشفرات» التي يتعاملون بها في «الموساد»؟

-إنك تتقدم.. حسناً.. أكمل وأمتعني يا أستاذ الجامعة السابق.

-لقد صار الهدف واضحاً.. قمتم بإبدالي برجلكم لكي يعود ويحصل على أسرار «شفرات الموساد» من خزانتي الخاصة في مكتبي بمبنى «الموساد».. أليس كذلك؟

ولكن السيد «م» أزاح بقعة تراب من فوق معطفه الثقيل قائلاً في امتعاض: لقد خانك خيالك مرة أخرى.. فكل تلك «الشفرات» التي تستعملها «الموساد» نعرف حلّها.. والأمر لا يستدعي كل هذا الجهد لكي نحاول معرفة شيء نعرفه منذ وقت طويل.. بل إنني مستعد أن أخبرك بأرقام الخزائن السرية التي تحتويها ونظام تغير هذه الأرقام الدوري!

بانت حيرة عظيمة على وجه الكولونيل، وعض على شفتيه في قسوة وقد بدا عليه أنه يجهل حقاً سبب كل ما يجري له، وتساءل إن كان ذلك الرجل الجالس أمامه يخدعه ويحاول التلاعب به لهدف ما؟

وتطلع الكولونيل حوله بوعي مشوش.. وأحس بألم شديد في صدره كان يجهل مصدره.. وأدرك أن أي مقاومة لن تفيده ولا بدَّ أن تخور قواه.. كان آخر شيء يتوقعه في العالم هو سقوطه في أيدي المخابرات المصرية على تلك الصورة.. ولكن ها هو المستحيل قد تحقق بطريقة مذهلة.

وكاد يجهش بالبكاء وهو يقول مسترحماً: إنني مستعد أن أخبركم بكل ما قمت به من أعمال لـ «الموساد» منذ التحقت بها.. ولكن بشرط أن تَعِدوني بإطلاق سراحي بعدها.. وأعدكم من جانبي أنني سأسافر إلى آخر العالم، ولن أضع يدي في يد «الموساد» أبداً بعد ذلك.

هز السيد «م» كتفيه قائلاً: إنه عرض غير مغرٍ بالنسبة لنا للأسف الشديد.. لأن ما تعرض منحه لنا من معلومات نحن نعرفه منذ وقت.. فيمكنني أن أخبرك مثلا بوثيقة «مارينو»

التي سرقها عملاء «الموساد» من خزانة وزير الخارجية البريطاني، والتي تتعلق بموقف إنجلترا المتشدد تجاه بلادكم فقمت أنت بحل «شفرتها» وأمكنكم بذلك إحراج الحكومة البريطانية واتهامها بمعاداة السامية، فكان أن أنكروا ذلك تماماً وغيروا سياستهم لصالحكم مع التضحية بوزير الخارجية المسكين وإقالته.. وكذلك الأبحاث التي تتعلق بخطط «أمريكا» لنظام «حرب النجوم» التي قام أحد عملائكم داخل البنتاجون بتصوير نسخة وأرسلها إليكم وكان لك الفضل في حل شفرتها المعقدة.. وبعد أن هددتم «أمريكا» بنشر أسرار هذا النظام وبيعه للروس، اضطر الأمريكان لإعلان مشاركتكم لضمان سكوتكم!

ومال السيد «م» على الكولونيل مواصلا: أم هل تريد أن أخبرك كيف تسللت أنت من حجرتك إلى حجرة صوفي مساء الأمس بعد نوم حارسيك، وعرضت عليها حبك ولكنها اشترطت عليك الزواج أولا.. فجثوت أمامها ورحت تقبل أصابعها وأنت تكاد تبكي كالأطفال..

ولم يكمل السيد «م» عبارته وتوقف مبتسماً في دهاء وهو يراقب الكولونيل الذي اتسعت عيناه عن آخرهما حتى كادتا

تخرجان من محجريهما.. وقد بدا على محياه ذهول مطبق مثل قروي ساذج فتح عينيه فوجد نفسه في صاروخ منطلق إلى المريخ!

وغمغم الكولونيل في صوت متحشرج وقد غرقت جبهته بالعرق: كيف عرفتم كل ذلك؟

هز السيد «م» رأسه في تواضع قائلاً: إنه عملنا.. ونحن نؤديه كأحسن ما يكون!

والتقط أنفاساً عميقة من غليونه في هدوء وكأنما لا يشغله شيء ما قبل أن يضيف بابتسامة عريضة لليهودي الراقد أمامه مقيد اليدين والقدمين: لا تخشَ شيئاً من جانبنا، فلسنا نحمل لك ضغينة خاصة.. وسجوننا لا تحتوي على مثل تلك الأساليب الإرهابية التي ترغمون بها أعداءكم على الحديث.. وعادة فإننا نحتفظ بالجواسيس في سجوننا حتى نقوم بتبديلهم برجالنا الذين يسقطون في أيدي مخابراتكم.. ولكن ليس هذا ما يجري دائما.. ففي أحيان كثيرة ترفض «الموساد» الاعتراف بأن عميلها الذي سقط في أيدينا كان يعمل لحسابها وتتجاهله تماما.. وهكذا نضطر إلى إلقائه في

سجوننا، ولا نطلق سراحه عادة قبل أنه يصاب بشلل رعاش أو بفقد بصره.. حتى نضمن انه سيقضي بقية أيامه يتسول طعامه أمام معابد «تل أبيب».. دون أن يصبح مصدراً للخطر ثانية!

بلل الكولونيل شفتيه الجافتين المرتعدتين وقد غمره شعور عميق بأنه أغبى إنسان في العالم.. وتذكر قول الجنرال شامير موداعي بأن «الموساد» أعظم جهاز مخابرات على وجه الأرض.. ولكنه في تلك اللحظة أدرك ببساطة أن تلك ليست هي الحقيقة بأي حال من الأحوال!

وعضَّ على شفتيه بقسوة.. وأحس بالندم لأنه ترك عمله الهادئ في الجامعة ليلقي بنفسه في أتون عمل مهلك كان يظنه مثل نزهة بسيطة، وحاول الكولونيل أن يتمالك نفسه وهو يقول: ولكن أين أنا.. هل أنا لا أزال في «أسطنبول»؟

تلاعبت ابتسامة أشد دهاء على شفتي السيد «م» وقال: لقد علمنا أنك تتمنى زيارة «القاهرة» لترى الأهرامات، لولا أن لك أراء ليست في جانب المصريين أو بناة الأهرامات.. فرأينا أن نقوم بتنظيم رحلة سياحية لك لتزور فيها «القاهرة».

غمغم الكولونيل ذاهلا: القاهرة.. هل أنا في «القاهرة»؟

أجابه «م»: نعم.. وعليك أن تخبرنا متى تريد زيارة الأهرامات فإننا لا نضن بتحقيق الرغبة الأخيرة، لمن سيتم إعدامهم قريبا.

ارتجف الكولونيل وأحس بجفاف لعابه.. كان لا يزال حتى تلك اللحظة لا يصدق أنه في القاهرة حقاً.. وتساءل في صوت كأنه خارج من بئر: ولكن كيف قمتم بنقلي إلى «القاهرة» وأنا مخدر؟

أطفأ «م» غليونه وراح ينظفه وهو يقول كان ذلك سهلا.. فإن أي سلطات محلية لن تدقق كثيراً في شخصية رجل أجريت له جراحة عاجلة في القلب ويرغب طبيبه في إعادته إلى بلاده على وجه السرعة، لأن العملية كانت فاشلة، وصاحبها يرغب في أن يموت بين أهله وبني وطنه.

غمغم الكولونيل في ذهول: رجل أجريت له جراحة في القلب من هو؟

دس «م» غليونه في جيبه بحرص وقال: لو أنك كشفت صدرك الآن لرأيت آثار تلك الجراحة.. إن قلبك سليم بحق،

ولكن كان الأمر يتطلب نقل بعض شرايينه واستبدالها لكي يقتنع أعزاؤنا ضباط جوازات مطار «أسطنبول» بخطورة الحالة، ويتركونا نغادر البلاد في طائرة إسعاف خاصة دون أسئلة كثيرة، وقد أقنعهم جواز السفر الذي أعددناه لك بأنك مصري أصيل!

مرة أخرى أحس الكولونيل بآلامه الحادة في صدره.. كأنما هناك سكين قد انغرزت فيه وراحت تؤلمه بشدة.. كان الأمر أقرب إلى الجنون، فردد غير مصدق وهو يصر على أسنانه قهرا وغيظاً: هل أجريتم لي جراحة في القلب؟

هزَّ «م» كتفيه في لؤم قائلا: ولو ظللت على مثل تلك الحالة من الحركة والصراخ فربما ينفتح الجرح مرة أخرى.. وتفشل العملية الأولى فتموت بعيداً عن بني وطنك للأسف الشديد.. وأنت ترى أننا أشفقنا عليك حقا فقمنا بتقييد يديك وقدميك حتى لا تتسبب أي حركة مفاجئة في فتح جرحك الكبير ثانية وموتك قبل أن تحقق رغبتك الأخيرة بزيارة الأهرامات!

حدق الكولونيل في «م» بفم مفتوح عن آخره.. وكأن عقله قد توقف عن تصديق كل ما يجري حوله، وأضاف السيد «م»

بابتسامة واسعة: ولست أشك أن الجنرال شامير عندما يعرف يوما ما بتلك الطريقة الرائعة التي أعدناك بها إلى القاهرة، سوف يعجب كثيرا بخيالنا الخصب، وإن كان لن يأسف كثيرا على ما حدث لك، وهو الأمر الذي يدعو للأسف!!

كانت الصدمة أكبر من أن يحتملها الكولونيل موسى.. فأغمض عينيه وتساقطت الدموع منهما وهو يبكي كطفل صغير.. كان الأمر يبدو وكما لو كان كابوسا مجنوناً أو فيلما مثيراً لا يكاد يصدق أحداثه.. وللمرة الأولى في حياته أدرك أن المصريين قادرون على أن يفعلوا أشياء كثيرة لا تقل مهارة.. ولكن كانت ميزتهم أنهم يفعلون ذلك في صمت ودون دعاية!

ولكنه في ذلك الوقت شعر بكراهية عميقة لذلك الرجل الجالس أمامه، وللآخر الذي حل في «تل أبيب».. ولكل أولئك المصريين والعرب المخادعين.. وفتح عينيه عن جمرتين من نار، وقال في صوت كالفحيح: لقد نجحتم في اختطافي إلى «القاهرة».. ولكن خدعتكم لن تظل مستورة أبداً وسوف تنكشف.. وأؤكد لك أنها ستنكشف حتماً.. فإن الجنرال شامير موداعي رجل يستحيل خداعه.. وهو عندما يعرف

الحقيقة لن تأخذه رحمة برجلكم الذي بدلتموه بي.. وسوف يقوم بنفسه بتمزيقه إلى ألف قطعة ويلقي بجثته إلى الكلاب الضالة..

وبصق الكولونيل على الأرض في حقد أعمى. و«م» يراقبه في صمت وتقطيب.. وقد كان السيد «م» يعرف أن ما نطق به الكولونيل الإسرائيلي هو الحقيقة ذاتها.. وتأكد له في نفس اللحظة أن إحساسه بالخطر الذي يحيط بماجد في «تل أبيب»، لم يكن مجرد مخاوف عادية.. وإلا ما حرص على مقابلة الكولونيل بعد إفاقته عسى أن يهدئ مخاوفه بشكل ما..

كان رقم (٧٠٠) في خطر بالغ بكل تأكيد..

ولم يكن في استطاعة «م» مساعدته بأي حال من الأحوال.

بل إنه كان مضطراً في حالة سقوط ماجد في أيدي «الموساد» إلى الادعاء بأنه لا يعرف شيئا عنه وأنه ليس من رجال المخابرات المصرية، حتى لا تحدث أزمة ديبلوماسية بين البلدين.

وقد كان «م» يعرف مصير ماجد في تلك الحالة تماما..

لأنه كان يعرف قواعد اللعبة!

معركة شارع دزينجوف

انتـــصف الليل في « تل أبيب » .. وســـاد السكون شـارع « جيفي رول » الهادئ.. ولم تكن هناك غير بضع سيارات قليلة مارة دون صخب تبعتـهـا سيارة شرطة مرت في هدوء. وألقى ماجد نظرة من خلف ستائر النافذة المظلمة متفحصاً.. ولكنه لم يلمح أحداً. كان الوقت ملائماً تماما للعمل الذي جاء لأجله..

ارتدى ملابس خفيفة وحذاء مطاطيا.. والتقط مسدسا من طراز « كولت » وجده في درج مكتب الكولونيل موسى.. كان من النوع الخفيف الذي يسهل حمله، وكانت خزانته ملأى بالرصاص، فدسه ماجد تحت سترته الخفيفة.. وفتح حقيبة صغيرة أمامه وصلته منذ دقائق فقط.. فقد كان رجال « م » في « تل أبيب » يعملون بنشاط وتدقيق.. وإن كان لا ينتظر منهم أي معاونة في مهمة الليلة الخطرة.

كان في الحقيبة مفتاح خاص «ماستركي» يمكنه فتح جميع الأبواب مهما كانت. كما كان بداخلها مجموعة من الأدوات الدقيقة ومسدس صغير لإطلاق سهم معدني خاص ثبت فيه حبل طويل.. وكانت الحقيبة تحتوي أيضاً على أحدث ابتكارات قسم الاختراعات والتسليح بالمخابرات. كان عبارة عن مولد كهربائي في حجم كف اليد ولكنه يصدر تيارا كهربائيا لا تقل قوته عن ٢٢٠ فولت لعدة دقائق.

صار ماجد مهيّأً تماماً للعمل.. وألقى نظرة أخيرة على الطريق.. الذي كان غارقاً في الصمت والهدوء..

لم يكن من الغباء ليغادر المنزل من بابه.. كان يعرف أن «الموساد» تراقب رجالها حتى الموثوق بهم.. ليل نهار.. ليس لحمايتهم فقط.. ولكن أيضاً خوفاً من الخيانة والغدر!

وكانت نافذة الحمام تطل على منور عريض بجواره مواسير المجاري والغاز.. وخلال دقيقتين فقط كان ماجد قد تمكن من حل النافذة الحديدية وراح يهبط في هدوء إلى أسفل معلقا بالمواسير. وعندما وصل إلى الطابق الأول تسلق أفريزاً يدور حول المبنى، وفي ركن منعزل قفز دون صوت.